من مغامرات ارسين لوبين

سر عقد اللؤلؤ

Source :www.liilas.com **Cherry** تقديم
To PDF: http://www.al-mostafa.com

الفصل الاول

دق جرس البهو بالقصر الكبير الذي تقطنه البارونة أسرمان بحي سان جرمان، وسرعانما أقبلت خادمة وفي يدها رسالة وقالت :

بالباب رجل يقول إن سيدتي استدعته للحضور في الساعة الرابعة .

فضت البارونة المظروف وأخرجت منه بطاقة عليها هذه الكلمات :

"مكتب بارنيت وشركاه للاستعلامات المجانية "

-أدخلي هذا السيد إلى مخدعي.

كانت فاليري الجميلة ، كما كانوا يدعونها منذ ثلاثين سنة، امرأة ضخمة ناضجة، ترتدي ثياباً أنيقة وغالية وتصبغ وجهها بعناية فائقة مما جعلها تحتفظ بنضارة كبيرة.. تنم ملامحها عن كبرياء، وأحياناً عن قسوة وفي أغلب الأحيان عن سذاجة لا تفتقر إلى الفتنة.. وهي زوجة المالي الكبير أسرمان، وكانت تزهو بما ترفل فيه من ترف، وبعلاقاتها وبقصرها ، وبكل ما يحيط بها، وكثيراً ما كان الناس يلومونها بسبب بعض مغامراتها الفاضحة، بل إن زوجها كان على وشك أن يطلقها في وقت من الأوقات .

مرت أولاً بغرفة البارون أسرمان ، وهو رجل متقدم في العمر معتل الصحة واضطرته الأزمات القلبية إلى ملازمة الفراش منذ أسابيع وسألته عن أخباره ، ورتبت الوسائد خلف ظهره وتمتم مستفهماً :

ألم يدق الجرس ؟ قالت :

نعم إنه ذلك المخبر السري الذي نصحوني أن ألجأ إليه كي يجلو لنا غموض قضيتنا ، ويبدو أنه رجل مشهور...

قال المالي: هذا حسن .. إن هذه المسألة تثير قلقي ، ولا أفهم فيها شيئاَ.

خرجت فاليري من الغرفة وقد ازداد قلقها هي الأخرى ، ومضت إلى مخدعها ، ووجدت فيه رجلاً غريب المظهر ، طويل القامة ، عريض الكتفين، متين البناء ، يرتدي سترة طويلة سوداء، أو بالأحرى تميل إلى الإخضرار، طلق الوجه ، حلو الملامح، لا يزال شاباً ولكنه خشن البشرة. عيناه باردتان ساخرتان، خلف مونوكل يضعه تارة فوق عينه اليمنى وأخرى فوق عينه اليسرى، تتألق عيناه بمرح صبياني... سألته :

مسيو بارنيت؟

انحنى نحوها. وقبل أن يسعفها الوقت لكي تسحب يدها طبع عليها قبلة في احترام... ثم قال :

-جيم بارنيت ، في خدمتك يا سيدتي. ما إن تلقيت رسالتك حتى أسرعت بالمجيء.

بدا عليها الذهول والتردد في طرد الدخيل.. ولكنه واجهها بذلك المرح الذي يتميز به رجال المجتمع ذوي الخبرة بأصول المجاملة بحيث لم يسعها إلا أن تقول :

قيل لي إنك بارع في حل القضايا المعقدة.

ابتسم في صلف وقال :

إنما هي موهبة لدي . فإنني أستطيع أن أرى في وضوح ، وأن أفهم.

كان صوته حلواً ، حاسم اللهجة، ومسلكه ينم عن تهكم خفي وسخرية مغلفة. كان يبدو شديد الثقة بنفسه وبمواهبه بحيث يوحي لمن

يستمع إليه بمقدرته غير المحدودة ، وأحست فاليري لأول وهلة أنها تخضع لنفوذ ذلك الرجل الغريب ، الفظ المظهر، والذي يقول عن نفسه أنه رئيس وكالة خاصة للاستعلامات والتحريات ، ورأت أن تعامله بالمثل فقالت :

-لعل من الأوفق أن نتكلم أولاً عن الشروط.. أسرع يقول :

-هذا أمر لا داعي له على الإطلاق .

ابتسمت بدورها وقالت:

-ومع ذلك فأنت لا تعمل لاكتساب المجد؟

-إن مكتب بارنيت يعمل مجاناً يا سيدتي.

بدا عليها الإستياء وقالت :

-كنت أود أن نتفق بيننا على شيء من التعويض أو المكافأة على الأقل .

قال وهو يضحك في استهزاء :

تعنين بقشيشاً!.. أصرت قائلة :

ومع ذلك فلا أستطيع أن...

-أن تظلي مدينة لي؟ .. إن المرأة الجميلة لا تدين بأي شيء لأي رجل . وأردف على الفور ، ربما للتخفيف من جرأة تهكمه:

-ولكن لا تخشي شيئاً يا سيدتي البارونة.. مهما يكن من أمر الخدمات التي سأؤديها لك فسوف أتدبر أمري بحيث لا يخرج أي منا مديناً للآخر.

ما معنى هذه الكلمات الغامضة؟ هل في نية هذا الرجل أن يسدد حسابه لنفسه؟ وماذا ستكون طبيعة هذا السداد؟

أحست برجفة من الضيق ، واصطبغ لونها .. الحق أن مسيو بارنيت هذا يوحي إليها بقلق غامض غير بعيد عن ذلك الإحساس الذي يحس به المرء أمام سارق يسطو على المنازل ، كما مر ببالها خاطر عجيب ... يا إلهي !.. نعم، خطر لها أنها ربما تواجه عاشقاً اختار هذه الطريقة الغريبة لإقتحام منزلها .. ولكن كيف تعرف ؟ وفي كل الحالات ، كيف تتصرف؟ تنازعها الخجل والإستسلام والأمان في نفس الوقت ، وأحست بأنها على استعداد للتسليم له بكل شيء .. ولهذا فما أن سألها المخبر عن الأسباب التي دفعتها إلى طلب المساعدة من مكتب بارنيت حتى تكلمت دون لف أو دوران، وبدون أية مقدمات ، كما طالبها بأن تفعل ... و لم يكن الحديث طويلاً ، فقد بدا مسيو بارنيت على عجل من أمره .. قالت :

كان ذلك يوم الأحد الأسبق ، كنت قد دعوت بعض الأصدقاء للعب البريدج ، وأويت في تلك الليلة لغرفتي مبكرة، ونمت كعادتي.. ولكن الصوت الذي أزعجني في نحو الساعة الرابعة.. في الرابعة والدقيقة العاشرة بالتحديد ، تبعه صرير ، بدا لي أن باباً يقفل.. وكان ذلك صادراً من مخدعي ... قاطعها بارنيت قائلاً :

أي في هذه الغرفة؟

وانحنى بارنيت في احترام، وهو يقول :

ناحية تلك الغرفة؟

-أجل.. وهي متصلة بغرفة نومي من ناحية، ومن ناحية بالطرقة التي تؤدي إلى سلم الخدم .. وأنا لا أخاف ، ونهضت بعد لحظة .

فقال :

-نهضت إذن؟

-نعم ودخلت، وأضأت النور. لم يكن هناك أحد ، ولكن هذه الفترينة كانت قد وقعت بكل محتوياتها من أشياء وتحف وتماثيل ، وتحطم بعضها. ومضيت إلى زوجي ، وكان يقرأ في فراشه ، و لم يسمع شيئاً .. وأحس بالقلق الشديد فقرع الجرس يستدعي رئيس الخدم الذي بدأ أبحاثه على الفور، وهي أبحاث تابعها منذ الصباح قوميسير البوليس.. سألها بارنيت :

-والنتيجة؟

- لم يكن هناك أي أثر يدل على دخول أو خروج الشخص.. كيف دخل وكيف خرج؟ .. هذا أمر غامض ، ولكنهم عثروا ، تحت وسادة، بين بقايا التحف على نصف شمعة وملقاط صغير ذي مقبض من الخشب، قذر جداً . ولما كان قد أقبل سباك بعد ظهر ذلك اليوم لإصلاح حنفيات الحوض في دورة المياه الملحقة بغرفة زوجي ، فقد استجوبوا صاحب المحل ، واعترف بأن المثقاب يخصه ، وعثروا لديه على النصف الآخر من الشمعة و ..

قاطعها بارنيت قائلاً :

-الأمر مؤكد إذا من هذه الناحية.

-نعم.. ولكن يناقضه أمر آخر مؤكد أيضاً ومحير حقاً فقد أثبت التحقيق أن العامل استقل القطار السريع المنطلق إلى بروكسل في الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه، وأنه وصل هناك في منتصف الليل ، أي قبل الحادث بثلاث ساعات.

-عجباً .. وهل عاد ذلك العامل؟

-كلا .. وإنما عثروا على آثاره في مدينة إنفرس حيث راح ينفق المال بغير حساب.

-وهل هذا كل شيء؟

-نعم تماماً.

-ومن الذي قام بالتحقيق؟

-المفتش بيشو.

ظهرت إمارات الفرح الشديد على ملامح بارنيت وقال:

-بيشو؟.. آه ، هذا الرجل العظيم!.. إنه من أعز أصدقائي يا سيدتي البارونة، وقد اشتركنا في العمل معاً كثيراً.

-الواقع أنه هو الذي حدثني عن مكتب بارنيت .

-لأنه لم يصل إلى نتيجة طبعاً ؟

-هو ذلك.

-هذا العزيز بيشو!.. سيسرني أن أؤدي له خدمة.. ولك أنت أيضاً يا سيدتي البارونة.. صدقيني .. لك أنت على الخصوص .

ومضى إلى النافذة ، واعتمد عليها بجبينه، وبقي بضع لحظات يفكر وهو ينقر بأحد أصابعه على لوح الزجاج ويترنم بلحن راقص. وتحول أخيراً إلى مدام أسرمان وقال :

-وخطر لبيشو طبعاً ، ولك أنت أيضاً يا سيدتي أنه كانت هناك محاولة للسرقة.

-نعم .. محاولة لم تثمر لأننا لم نكتشف ضياع شيء.

-لنفرض ذلك . ولكن مهما يكن فقد كان لهذه المحاولة هدف معين ولا بد أنك تعرفينه، فما هو؟

أجابت فاليري بعد تردد يسير:

-لا أعرف !

ابتسم المخبر السري ثم مد إصبعاً ساخراً إلى قطعة من القماش تحيط بالمخدع، فوق العامود، وسألها كما لو أنه يسأل طفلاً أخفى شيئاً :

-ماذا يوجد تحت هذه القطعة؟

أجابت مذهولة :

-لا شيء .. ما معنى هذا؟

قال مسيو بارنيت في لهجة جدية :

-معناه أن أشد المفتشين سذاجة يلحظ أن أطراف هذه القطعة المربعة من القماش مستهلكة شيئاً ما ، وأنها تبدو في بعض المواقع متفرقة عن العامود بفتحة، وأن هناك ما يحمل على الظن بأن هناك خزانة مخبوءة في هذا المكان يا سيدتي البارونة.

سرت رعشة في بدن فاليري، إذ كيف استطاع مسيو بارنيت أن يخمن مع هذه الأدلة الغامضة ، وفجأة رفعت قطعة القماش وكشفت بذلك عن باب صغير من الصلب وعالجت في انفعال الأزرار الثلاثة لقفل الخزانة وهي تشعر بقلق شديد .. ورغم أن النظرية كانت غير معقولة، فقد تساءلت إن لم يكن ذلك الرجل الغريب قد سرقها أثناء الدقائق القليلة التي بقي فيها في الغرفة لوحده .

وأخرجت من جيبها مفتاحاً وفتحت الخزانة.. وما كادت تفعل حتى تنهدت في ارتياح، فقد كان بداخل الخزانة عقد رائع من اللؤلؤ ، أخذته ونظرت إلى بارنيت وقد اطمأنت ..ولكن بارنيت انفجر ضاحكاً وقال:

-الحق أنه عقد رائع وجميل ولا يستغرب أن يسرقه اللص .

نظرت البارونة إليه مشدوهة وقالت :

-وكيف تسنى له سرقته ؟ إنه حاول طبعاً ولكنه باء بالفشل.

-هل أنت واثقة مما تقولين يا سيدتي البارونة؟

-طبعاً . فالعقد في يدي، والشيء المسروق يختفي كما تعلم.

-بل قولي إن في يدك عقداً ، ولكن هل أنت واثقة من أنه عقدك الأصلي، وأن له قيمة ما ؟

-طبعاً ، فقد عرضته منذ أسبوعين على أحد تجار المجوهرات، وقد قدره بنصف مليون فرنك.

-منذ أسبوعين؟ .. أي قبل الحادث الذي وقع في هذه الغرفة بخمسة أيام .. صحيح أنني لست متأكداً ، لأنني لم أفحص العقد بعد، ولكنني أشعر بالإرتياب.. أفلا تشاركينني شعوري؟

لم تنطق البارونة لأنها لم تعرف فيما ترتاب، ولكنها أحست بقلق غامض، ونظرت إلى العقد الذي في يدها في شيء من الحيرة.. وتحقق لها فجأة أنه أخف من عقدها الذي تعرفه.. و لم تلبث أن لاحت عليها إمارات الفزع وقد بدت لها الحقيقة فجأة ، وقال بارنيت :

-نعم، نعم، لقد أوضحت لك الحقيقة، والأمر واضح كما ترين، فإن الرجل الذي اقتحم غرفتك لم يسرق وإنما استبدل شيئاً بشيء، وبذلك لم يختف من الغرفة أي شيء.. ولولا أنه اصطدم بالفترينة فسقطت وصدر منها ذلك الصوت لما استيقظت ولما انكشف الأمر أبداً.. وما كنت لتعرفي أن العقد البديع الذي تتزينين به ما هو في الواقع إلا عقد مزيف لا يساوي أكثر من بضعة فرنكات .

ولزم بارنيت الصمت لحظة، ولكنه لم يلبث أن قال محاولاً أن يصل إلى هدفه بأسرع ما يمكن :

-وصلنا الآن إلى أهم نقطة في الموضوع، وهي أن عقد اللؤلؤ اختفى ، ولكن لا يجب أن نتوقف عند هذه النقطة.. وعلينا الآن أن نحاول الإهتداء إلى نقاط أخرى ، وأن نمحص كل شيء بدقة، وعليه فلنفترض أن زوجك رغم مرضه استطاع في تلك الليلة أن يجر نفسه من غرفته حتى هنا، وأنه استخدم الشمعة والمثقاب الذين نسيهما العامل قبل انصرافه، وأنه فتح الخزانة وقلب الفترينة، وأنه هرب خوفاً من أن تكوني قد سمعته .. أفلا يبدو كل شيء جلياً وواضحاً حتى الآن؟ .. ومن الطبيعي في هذه الحالة أن لا يكون هناك ما يدل على دخول أو خروج أي شخص ..ومن الطبيعي أيضاً أن تكون الخزانة قد فتحت دون أي اغتصاب وأنه رآك خلال السنوات التي حظى فيها بالدخول إلى مخدعك ، وأنت تفتحين الخزانة مراراً وتكراراً ، ولاحظ طريقة معالجتك لأرقامها وكيف تفتحينها .

بدا أن النظرية الصغيرة أفزعت فاليري الجميلة، وكانت تصغي إليه كما لو أنها ترى كل ما حدث وتتذكر. وقالت في ذهول :

-أنت مجنون، إن زوجي لا يستطيع.. إذا كان قد جاء في تلك الليلة أحد فلا يمكن أن يكون زوجي.. إن هذا مستحيل .

ولكن بارنيت أردف قائلاً :

-هل كانت هناك نسخة مقلدة من عقدك؟

-نعم !صنع زوجي بدافع الحرص نسخة مقلدة منه منذ أربع سنوات.

-ومع من هذه النسخة؟

أجابت في صوت خافت جداً :

-معه هو !

اختتم مسيو بارنيت حديثه قائلاً في مرح:

-هذه النسخة المقلدة هي التي تمسكين بها بين يديك الآن .. إنها هي التي استبدلت بعقدك الحقيقي .. وهو الذي أخذه .. ولكن لأي سبب.. إن ثروته تضعه فوق كل الشكوك ، ولا بد لنا أن نواجه أسباباً شخصية.. كالإنتقام مثلاً، أو حاجته إلحاق الضرر بك أو ربما معاقبتك، أليس كذلك؟ إن إمرأة شابة وجميلة يمكن أن ترتكب بعض الحماقات، حماقات مشروعة حقاً ولكن قد يحكم عليها الزوج بشيء من القسوة ..وأرجو أن تعذريني يا سيدتي البارونة ، فليس لي أن أتدخل في أسراركما الزوجية، وإنما علي فحسب أن أبحث عن عقدك .

صاحت فاليري وهي تتراجع خطوة إلى الوراء:

-كلا، كلا. كانت تشعر بالذهول من ذلك الشيطان الذي استطاع في بضع دقائق من الحديث ، ولحظات من التهكم ، وبطريقة مخالفة لكل قواعد التحقيق، أن يكتشف بسهولة عجيبة كل الأسرار التي تحيط بها، وأن يريها بطريقة ساحرة الهوة التي يقودها القدر إليها، ولم تعد تشعر بأي رغبة في سماع صوته الساحر، وعادت تقول في إصرار :

-كلا... انحنى أمامها وقال :

كما يحلو لك يا سيدتي، لم يكن في نيتي أن أزعجك، وأنا هنا لكي أؤدي لك خدمة، وإذ بلغنا هذه المرحلة فأنا مقتنع أنك تستطيعين إعفائي من مساعدتك خاصة وأن زوجك لا يمكنه أن يخرج، وإنه ليس من الحماقة بالطبع لكي يعهد بالعقد إلى أي شخص، وأنه لا يزال يحتفظ به مخبوءاً في مكان ما من غرفته.. وبالبحث الدقيق يمكنك العثور عليه.. ويبدو لي أن هذه المسألة قد أصبحت من اختصاص صديقي بيشو.. ولكن لي كلمة أخيرة .. إذا حدث واحتجت إلي فاتصلي بي بالتلفون بالمكتب مساء اليوم من التاسعة إلى العاشرة.. ولك تحياتي يا سيدتي.

ومن جديد قبل يدها دون أن تجرؤ على إبداء أي مقاومة ، ثم انصرف ووهو يسير متبختراً في ارتياح، وأقفل الباب خلفه .

وفي نفس المساء طلبت فاليري المفتش بيشو، وبدا أن وجوده المستمر في قصر أسرمان شيء طبيعي، وبدا المفتش القدير وتلميذ جانيمار المشهور بحثه الدقيق في جميع أرجاء البيت، في الغرفة وفي دورة المياه، وفي المكتب بالذات.. وكان العقد مؤلفاً من ثلاثة صفوف من اللؤلؤ، وهو بهذه الصورة لا يمكن إخفاؤه ، وخصوصاً عن رجل قدير مثله ... ومع ذلك فبعد ثمانية أيام من البحث والتدقيق ، وبعد ليلي كان ينتهز فيها تناول البارون منوماً يقوم بنفسه بتفتيش الفراش وما يوجد تحته ، ثبطت همته، وأعلن أن العقد لا يمكن أن يكون موجوداً في القصر .

فكرت فاليري أخيراً في أن تلجأ إلى مكتب بارنيت رغم نفورها من بارنيت نفسه، وأن تطلب معونته.. ماذا يهمها لو أنه قبل يدها أو دعاها بالبارونة العزيزة لو أنه يبلغ الهدف .

ولكن حدث فجأة حادث ليس بالحسبان ، وقلب الموقف تماماً ففي آخر أصيل ذلك اليوم أقبل أحد الخدم مسرعاً وأبلغها أن زوجها تعرض لأزمة شديدة وأنه قد تهالك خائر القوى فوق أريكة بجانب باب دورة المياه وأنه يكاد يختنق وتدل سحنته المقلوبة على أنه يعاني آلاماً مبرحة .

واستولى الخوف على فاليري واتصلت بالطبيب ، ولكن البارون تمتم قائلاً :

-فات الوقت .. فات الوقت.

فقالت: كلا . أقسم لك أنك ستكون على ما يرام .

حاول أن ينهض ، وقال وهو يتمايل نحو دورة المياه :

-أريد ماء.

-ولكن الدورق مملوء أمامك يا صديقي.

-كلا ، كلا. لا أريد هذا الماء .

-ولماذا هذه النزوة؟

-أريد أن أشرب الماء الآخر .. من هذا الصنبور..

ثم وقع وقد خارت قواه.. وفتحت الصنبور الذي أشار إليه ، ثم مضت لكي تأتي بكوب ، ملأته وناولته إياه.. ولكنه رفض أن يشرب . وخيم صمت طويل، وأشار إليها بأن لديه ما يريد أن يقوله لها فانحنت فوقه، ولكن لا ريب أنه خشي أن يسمعه الخدم لأنه قال:

-اقتربي أكثر.. اقتربي.

تردد كما لو أنها خشيت ما سوف يقول.. ولكن نظرة زوجها اتخذت سمة آمرة أجبرتها أن تذعن فجثت بجواره وألصقت أذنها بفمه

تقريباً . وهمس بكلمات غير مفهومة استطاعت أن تخمن معناها بكل جهد:

-عقد اللؤلؤ .. يجب أن تعرفي قبل أن أرحل .. أنت لم تحبيني أبداً وتزوجتيني بسبب ثروتي .

احتجت غاضبة ، إزاء هذا الإتهام القاسي في هذه الساعة الخطيرة ، ولكنه أمسك بمعصمها وعاد يقول في غموض كما لو أنه يهذي :

-بسبب ثروتي ، وقد برهنتي على ذلك بسلوكك ،فأنت لم تكوني زوجة مخلصة، ولهذا أردت معاقبتك،و أنا أعاقبك في هذه اللحظة بالذات، وأشعر بسرور كبير .. ولكن يجب أن يقع ذلك ، وقبل أن أموت، لأن اللآلئ ستختفي.. إنك لا تسمعينها الآن وهي تسقط وتمضي مع التيار.. آه يا له من عقاب يا فاليري.. القطرات التي تسقط.. القطرات التي تسقط!

وخارت قواه ، وحمله الخدم إلى فراشه .. وأقبل الطبيب بعد قليل، وأقبلت أيضاً ابنتا أخ له، متقدمتان في السن، علمتا بما يعانيه، و لم تتحرك أي منهما من الغرفة بعد ذلك.. وبدا عليهما الإهتمام بكل حركات فاليري والاستعداد للدفاع عن الأدراج والدواليب ضد كل محاولة.

ومات البارون أسرمان قبل بزوخ الفجر ، دون أن ينطق بكلمة أخرى. ووضعت الأختام على كل الغرف ، وعلى المفروشات بناء على طلب ابنتي الأخ ، وبدأت مراسم الجنازة الطويلة والسهر.

وبعد يومين أقبل محامي البارون ، وطلب مقابلة فاليري على حدة . وكانت ملامحه تنطق بالخطورة والحزن وقال لها :

-إن المهمة الملقاة عليّ عصيبة يا سيدتي البارونة، وأريد الفراغ منها بأسرع ما يمكن، مؤكداً لك مسبقاً أنني لم أوافق على الضرر الذي يقع عليك، ولكنني اصطدمت بإرادة حديدية لا تلين، وأنت تعرفين إصرار مسيو أسرمان ، ورغم كل ما بذلت من جهد.

توسلت إليه فاليري قائلة :

-أرجوك أن تتكلم يا سيدي .

-إليك الأمر إذن يا سيدتي .إن بين يدي الوصية الأولى لمسيو أسرمان ويرجع تاريخها إلى عشرين سنة ، يوصي لك فيها بكل شيء كوريثة شرعية وحيدة.. ولكن يجب أن أقول لك أنه عهد إلي في الشهر الماضي بتحرير وصية أخرى يترك فيها كل شيء لابنتي أختيه.

-وهل معك هذه الوصية؟

-بعد أن قرأها لي وضعها في هذا المكتب، أراد أن لا يطلع عليها أحد إلا بعد أسبوع من وفاته.. ولا يمكن أن ترفع الأختام قبل هذا التاريخ.

أدركت البارونة الآن لماذا نصحها زوجها ، قبل بضع سنوات في الوقت الذي وقعت فيه المشاحنات بينهما، أن تبيع كل مجوهراتها وأن تشتري بثمنها عقداً من اللؤلؤ .. وحيث أن العقد مزيف، وأنها ستحرم من الميراث فلن تكون لها أية ثروة ، ولن يكون لها أي مورد .

وفي اليوم السابق لرفع الأختام، توقفت سيارة أمام محل متواضع بشارع دي لابورد عليه هذه اللافتة :

"مكتب بارنيت وشركاه مفتوح من الساعة الثانية إلى الثالثة" استعلامات مجانية

وهبطت من السيارة امرأة ترتدي ثياب الحداد ، ودقت على الباب فقيل لها أن تدخل.

ودخلت، وسمعت صوتاً تعرفه ، يقول من غرفة داخلية يفصل بينها وبين المكتب ستارة .

-من القادم؟.. أجابت :

-البارونة أسرمان .

-آه ، معذرة يا سيدتي البارونة ..تفضلي بالجلوس. سأحضر حالاً.

انتظرت فاليري أسرمان وراحت تتفحص المكان .. كان عادياً تقريباً ، ليس به غير منضدة ومقعدين، والجدران عارية.. لا ملفات ولا أية أوراق. والشيء الوحيد الذي يزين الغرفة جهاز تلفون ، وبجواره بعض أعقاب السجائر الفاخرة، ويفوح من المكان رائحة رقيقة وأزيحت الستارة، وبرز من خلفها جيم بارنيت، خفيف الحركة، وعلى شفتيه ابتسامة. نفس السترة الطويلة المستهلكة، وربطة عنق جاهزة ومربوطة بغير إحكام، ونفس المونوكل في آخر شريط أسود.

أسرع بالانحناء فوق يدها وقبل القفاز ثم قال :

-كيف حالك أيتها البارونة. هذا شرف كبير لي.. ولكن ما الخبر؟ هل أنت في حداد ؟ أرجو أن لا يكون الأمر خطيراً .. آه .. يا إلهي، ما أشد شرودي! إنني أتذكر.. البارون أسرمان، أليس كذلك؟ يا لها من كارثة . لقد كان رجلاً ظريفاً جداً ، وكان يحبك كل الحب. والآن؟ .. إلى أين كنا وصلنا؟

وأخرج من جيبه نوتة صغيرة تصفحها ثم قال :

-البارونة أسرمان.. هو ذلك.. إنني أتذكر.. اللآلئ المزيفة!.. والزوج السارق.. إمرأة جميلة.. بل جميلة جداً.. يجب أن تكلمني في التلفون.

وأردف يقول في ألفة متزايدة :

-حسناً يا سيدتي العزيزة.. إنني ما زلت أنتظر مكالمتك التلفونية.

تحيرت فاليري مرة أخرى إزاء سلوك ذلك الرجل ..وبدون أن تظهر كامرأة فجعها موت زوجها ، أحست رغم ذلك بمشاعر شاقة زاد من صعوبتها القلق من المستقبل ومن بشاعة الفاقة.. وكانت قد قضت خمسة عشر يوماً قاسية، تتخيل فيها الدمار واليأس بكوابيس حافلة بتبكيت الضمير والفزع والإنزعاج، ما زالت آثارها تبدو على ملامحها.. وهاهي تجد نفسها الآن أمام شاب مرح ، ساخر، لا يبدو أنه يفهم الموقف تماماً.

ولكي تكسب الحديث اللهجة المناسبة، روت له الأحداث بكل هدوء ووقار متحاشية انتقاد زوجها، وأعادت عليه كلمات المحامي، فقال المخبر وعلى شفتيه ابتسامة استحسان :

-حسن.. حسن جداً ل هذا مترابط تماماً .. إن من دواعي السرور أن أرى أن هذه المأساة العاطفية قد دارت بكل نظام وترتيب.

سألته فاليري وقد ازدادت حيرتها:

-من دواعي السرور؟

-نعم . وهو سرور لا ريب أن صديقي بيشو قد شعر به، لأنني أظن أنه شرح لك.

-ماذا؟

-ماذا تقولين؟ أعني أنه لا ريب شرح لك عقدة المكيدة، ولغز الموضوع ألا ترين أن الأمر غريب ومضحك؟.. لا ريب أن بيشو ضحك ما شاء له أن يضحك.

وراح بارنيت يضحك من قلب خلي، ثم قال :

-آه .. حكاية صنبور المياه! وإنها لحكاية جميلة.. ولكنها دبرت بكل إحكام. وأعترف لك بأنني أدركت الحقيقة حالاً .. وعندما حدثتني عن عامل سباك رأيت على الفور العلاقة بين إصلاح الحوض وخطة البارون أسرمان وقلت في نفسي: إن هذا لغريب ، ففي نفس الوقت الذي استبدل فيه البارون العقد الصحيح بالعقد الزائف ، أعد مخبأً أميناً للآلئ الحقيقية، فقد كان ذلك ضرورياً بالنسبة له ، أليس كذلك؟ فلو أنه سلبك اللآلئ لكي يلقيها في نهر السين كشيء لا قيمة له يراد التخلص منه ما كان ذلك ليكون إلا نصف انتقام ، ولكي يكون ذلك الانتقام كاملاً وتاماً ، ورائعاً ، كان لا بد له من الإحتفاظ باللآلئ بجواره وأن يضعها في مخبأ قريب لا يمكن الوصول إليه وهذا ما حدث .

كان يبدو على جيم بارنيت أنه يلهو كثيراً ، واستطرد وهو يضحك :

-وهذا ما حدث بفضل التعليمات التي أصدرها للسباك.. وأخالك تسمعين من هنا الحديث الذي دار بين البارون والسباك:

اسمع يا صاحبي، افحص هذه الأنبوبة التي يتفرغ منها الماء من الحوض ..إنها تهبط حتى العامود وتمتد من دورة المياه الخاصة بي في انحدار يكاد لا يلحظ، أليس كذلك؟ حسناً . سوف تخفف هذا الانحدار وترفع الأنبوبة من هذا المكان قليلاً بحيث تحدث نوعاً من تجويف مسدود يمكن أن يبقى فيه شيء عند الحاجة، وإذا فتح أحد الصنبور فسوف يجري الماء ويملأ ذلك التجويف ويجرف الشيء الذي فيه معه هل تفهم يا صاحبي؟ نعم؟ حسناً . إذا كان الأمر كذلك فاثقب لي ثقباً في هذا المكان من الأنبوبة، عند الحائط على أن يكون قطره نحو سنتيمتر وبحيث لا يراه أحد تماماً ، في هذا الموضع.. هذا رائع .. والآن سد هذا الثقب بهذه السدادة الكاوتشوك.. هكذا .. حسناً جداً يا صاحبي.. لم أعد بحاجة الآن إلا أن أشكرك، وأن يبقى هذا الأمر بيننا سراً .. اتفقنا؟.. ولا كلمة واحدة لأي أحد.. الصمت التام.. وإليك ما يكفل لك أن نستقل قطار بروكسل الليلة، وهاك ثلاث شيكات يمكن أن تقبض قيمتها هناك .. شيك كل شهر.. وأنت حر في أن تعود بعد هذه الشهور الثلاثة.. والوداع يا صاحبي.. ثم يشد على يده.. وفي الليلة التي سمعت فيها الصوت الذي أيقظك من النوم ثم استبدال اللآلئ الحقيقية بالأخرى المزيفة في المخبأ المعد ، أي في التجويف الذي أحدثه في الأنبوبة .. هل تفهميني الآن؟ وإذ أحس بأنه يوشك أن يموت استدعاك وطلب منك كوباً من الماء.. كلا .. ليس من الماء الذي في الدورق وإنما من الصنبور.. وأطعته أنت ، وهذا هو العقاب الرهيب الذي أوقعته على نفسك، وبيدك أنت بالذات، فقد فتحت الصنبور وجرى الماء وجرف معه اللآلئ .. وتمتم البارون عندئذٍ في حماس واهتياج: هل تسمعين؟.. إنها تسقط ..إنها تسقط في الظلمات.

أصغت البارونة في صمت واضطراب .. ومع ذلك ، ففضلاً عن فظاعة القصة التي سمعتها والتي تظهر فيها كل تلك القسوة وكل الكراهية، وكل الحقد الذي أحس به زوجها نحوها تذكرت شيئاً آخر استخلصته من الحقائق بدقة مخيفة وقالت:

-إذن فأنت كنت تعرف؟ كنت تعرف الحقيقة؟.. أجاب:

-عجباً !.. أليست هذه مهنتي؟

-ولم تقل لي شيئاً؟

-كيف هذا؟ ولكن أنت أيتها البارونة التي منعتني من أن أقول لك كل ما أعرفه وما كنت أوشك أن أحيطك به علماً ، وصرفتني في شيء من القسوة. وأنا رجل كتوم بطبعي فلم أصر.. ثم كان لا بد لي من أن أتحقق.

تمتمت فاليري :

-وهل تحققت؟

-أوه .. كان ذلك بدافع الفضول.

-متى؟.. في أي يوم.

-في نفس الليلة بالذات.

-تلك الليلة؟.. هل استطعت دخول البيت والشقة؟.. وكنني لم أسمع.

-إنني اعتدت العمل دون أن يصدر مني أي صوت.. ولم يسمع البارون أسرمان شيئاً هو الآخر.. ومع ذلك.

-ومع ذلك؟..

-لأنني أوسعت الثقب بالأنبوبة.. ذلك الثقب الذي أدخل منه زوجك العقد.

ارتجفت وقالت :

-إذن ..إذن.. فأنت قد رأيت؟

-رأيت؟

-اللآلئ؟

-كانت اللآلئ موجودة.

عادت فاليري تقول في صوت خافت مكتوم:

-إذا كانت هناك .. فقد استطعت إذن أن تأخذها؟

اعترف ببساطة:

أظن يا سيدتي أنه لولاي ، أنا جيم بارنيت، للحقت بالمصير الذي أراده لها أسرمان يوم موته.. ذلك المصير الذي وصفه لك. إنها تسقط.. إنها تسقط في الأعماق.. ولأفلح انتقامه.. وإنها لخسارة فهو عقد جميل .. وتحفة لمن يحتفظ به.

لم تكن فاليري من النساء اللواتي ينفعلن ويخضعن للغضب بسهولة وذلك حتى تظل محتفظة بهدوئها ووقارها .. ولكن الغضب تملكها بشكل جنوني في تلك اللحظة، بحيث أنها انقضت على بارنيت وحاولت الإمساك بخناقه قائلة :

-هذه سرقة .. ما أنت إلا أفاق .. كنت أشك في ذلك.. أفاق ومحتال.

أبهجت كلمة محتال الشاب وتمتم :

-محتال ..هذه كلمة جميلة..

ولكن فاليري لم تتوقف ، بل راحت تذرع أرض الغرفة جيئة وذهاباً وهي تهتز من فرط الغضب. وقالت:

-لن أسكت على هذا .. ستعيده إلي على الفور وإلا أبلغت البوليس.

هتف يقول:

أوه يا للمشروع البغيض! كيف يمكن لامرأة جميلة مثلك أن تعامل مخلصاً وأميناً هذه المعاملة الجافة؟

هزت كتفيها وقالت بلهجة الأمر :

-عقدي!

-عجباً ولكنه تحت تصرفك. هل تظنين أن جيم بارنيت يسلب الناس الذين يشرفونه باستخدامه؟.. هذا عجيب! وكيف يكون من أمر مكتب بارنيت وشركاه الذي تقوم شهرته على استقامته ونزاهته المطلقين؟ إنني لا أطالب عملائي بأي شيء ولو أنني احتفظت بعقدك فإنني أكون لصاً محتالاً في حين أنني رجل شريف ها هو عقدك يا عزيزتي البارونة.

وقدم لها كيساً من القماش يحتوي على اللآلئ ووضعه فوق المنضدة، دهشت البارونة، وأمسكت بالعقد الثمين بيدها المرتعشة ولكنها خشيت فجأة أن يكون في الأمر حيلة ما لأنها أسرعت نحو الباب دون تردد.

فضحك بارنيت وقال:

-أراك على عجل من أمرك يا سيدتي.. أفلا تفحصين حبات اللؤلؤ أولاً ؟ مائة وخمسة وأربعون لؤلؤة ..وكلها موجودة. وهي اللآلئ الحقيقية هذه المرة..

قالت فاليري:

-نعم، نعم .إنني أعرف.

-وهل أنت واثقة؟ هل أنت واثقة أنها نفس اللآلئ التي قدر ثمنها بخمسمائة ألف فرنك ؟

-نعم. إنها هي بنفسها.

-هل أنت متأكدة؟.. قالت دون تردد :

-نعم.

-ما دام الأمر كذلك فإنني أشتريها منك.

-تشتريها مني؟ ..ما معنى ذلك؟

-معناه أنك الآن وقد أصبحت بدون ثروة فسوف تضطرين إلى بيعها. ومن الأوفق أن تبيعيها لي، فأنا أعرض عليك أكثر مما سيعرضه غيري . أعرض عليك ما يوازي قيمتها عشرين مرة، فبدلاً من خمسمائة ألف فرنك، فإنني أعرض عليك عشرة ملايين . آه .. آه!.. أراك وقد بهت، فإن عشرة ملايين مبلغ ضخم.

-عشرة ملايين؟

-تماماً .. وهي القيمة التي يقدر بها ميراث مسيو أسرمان.

توقفت فاليري أمام الباب وقالت :

-ميراث زوجي؟ .. إنني لا أرى العلاقة.. أوضح الأمر.

قال جيم بارنيت في هدوء وهو يضغط على كلماته :

-إن التفسير بسيط ويكمن في بضع كلمات. عليك أن تختاري بين عقد اللؤلؤ وبين الميراث.. رددت دون أن تفهم :

-عقد اللؤلؤ والميراث؟ ..

-هو ذلك فهذا الميراث كما قلت لي مرتبط بوصيتين: الأولى في صالحك والثانية في صالح ابنتي الأخ العجوزين. وهنا تملكان ثروة طائلة وشريرتان، كما لو كانتا ساحرتين.. فإذا لم توجد الوصية الثانية تصبح الأولى نافذة المفعول .

تمتمت في صوت أصم :

-يجب أن ترفع الأختام غداً وأن تفتح أدراج المكتب، والوصية فيه .

قال بارنيت مزمجراً :

-الوصية فيه. أو ليست فيه. وأعترف في تواضع شديد أنها ليست فيه.

-هل هذا ممكن؟

-ممكن تماماً .. بل يكاد يكون أمراً مؤكداً ، فإنني أتذكر في الواقع أنني في الليلة التي تبادلنا فيها الحديث، أنا وأنت، عندما أتيت لجس أنبوبة الحوض انتهزت الفرصة لكي أقوم بزيارة لغرفة زوجك العزيز، وكان غارقاً في النوم.. قالت وهي ترتجف :

-وهل أخذت الوصية؟

-يبدو ذلك .. وأظن أنها مكتوبة في هذه الورقة بخط رديء.

وبسط ورقة مدموغة عرفت فيها خط مسيو أسرمان وقرأت ما يلي :

"أنا الموقع أدناه، المالي جوزيف أسرمان ، أقر بأن زوجتي لا يمكن أن تطالب بثروتي وذلك لأسباب خاصة تعرفها هي وإنني "..

و لم تكمل فقد اختنق صوتها ، وتهالكت فوق المقعد وقد خارت قواها وتلعثمت قائلة:

-إنك سرقت هذه الورقة.. لا أريد أن أكون شريكة.. يجب أن تنفذ إرادة زوجي المسكين.. يجب ذلك.

أبدى جيم بعض الحماس وقال :

-آه ما أجمل هذا الذي تقولين، يا صديقتي العزيزة.. الواجب هنا، في التضحية، وأنا أقرك تماماً، لا سيما أنه واجب شديد القسوة، لأن ابنتي الأخ المذكورتين غير جديرتين بأي اهتمام، وأنت نفسك التي تضحين بنفسك بسبب أحقاد مسيو أسرمان.. ولماذا؟.. أبسبب بضع تفاهات صدرت منك في سبابك تقبلين مثل هذا الظلم؟ فاليري الجميلةتحرم نفسها من الترف الذي تستحقه وتضطر لأن تعيش في الفقر والفاقة! مهما يكن فإنني أهيب بك أن تفكري جيداً في الأمر أيتها البارونة .. فكري في الأمر وفي نتائجه الممكنة .. إذا اخترت العقد ، وأعني أن لا يكون بيننا أي سوء تفاهم، إذا خرج العقد من هذه الغرفة فإن المحامي سيتلقى غداً هذه الوصية الثانية وتحرمين من الميراث، وإلا ..

-وإلا.

-وإلا فلم يعرف أحد بأمر الوصية الثانية، وترثين أنت كل الثروة.. عشرة ملايين تؤول إليك بفضل جيم بارنيت.

كان الصوت ساخراً .. وأحست فاليري بالضيق والإختناق . عجزت عن الحركة كفريسة وقعت بين يدي ذلك الشيطان.. لم يكن هناك أي مقاومة مستطاعة، فهي إذا لم تترك العقد فسوف تصبح الوصية الثانية علنية، ومع مثل هذا الخصم لم يكن هناك أي أمل ولن يقبل أبداً.

وقضى جيم بارنيت لحظة وجيزة خلف الستارة.. وكان من الجرأة بحيث عاد بعد برهة وقد دهن وجهه بمادة دهنية وراح يمسحها شيئاً فشيئاً كما يفعل الممثلون عندما يتنكرون.

بدا لها عندئذ بهيئة أخرى ، أصغر سناً ببشرة جميلة صحية وقد غير عقدة ربطته برباط أنيق واستبدل السترة الطويلة المستهلكة بجاكيت على أحدث طراز، وتصرف كرجل لا يمكن أن يخونه أحد أو أن يشي به. كان واثقاً من أن فاليري لن تجرؤ أبداً على أن تذكر كلمة من

كل ذلك لأحد، ولا حتى للمفتش بيشو، وأن سره سوف يصان.. وانحنى نحوها وقال وهو يضحك :

-يخيل إلي أنك ترين الأمور الآن بصورة أكثر وضوحاً .. وهذا أفضل. وعلى كل حال فمن ذا الذي يمكنه أن يعرف أن البارونة أسرمان تتزين بعقد زائف.. لا أحد من أصدقائها أو صديقاتها، بحيث أنك تكسبين معركة مزدوجة، فتحتفظين في نفس الوقت بثروتك الشرعية وبعقد لن يشك أحد في حقيقته .. أليس هذا جميلاً ؟ أولا تبدو الحياة أمامك بصورة أكثر إمتاعاً .. الحياة الجميلة المثيرة بلهوها ومرحها وحلاوتها حيث يمكن أن تقومي فيها بكل الحماقات التي يستحقها سنك .

لم يكن في نية فاليري أن تقوم بأية حماقات ، فرمت جيم بارنيت بنظرة حافلة بالحقد والغضب ، وخرجت رافعة الرأس وتركت فوق المنضدة الكيس الصغير الذي يحتوي على العقد.

وقال جيم بارنيت يحدث نفسه وهو يعقد ذراعيه في سخط :

-وهذه ما يسمونها امرأة شريفة!.. يحرمها زوجها من الميراث لكي يعاقبها على مباذلها ولا تحفل بإرادته الأخيرة.. هناك وصية، ولكنها تخفيها، ومحام تخدعه.. وابنتا أخ تسرقهما ..ويا له من شيء منفر وفظيع وما أجمل القيام بدور المنتقم الذي يعاقب ويعيد الأمور إلى مكانها الحق.

ووضع بارنيت العقد في خفة في مكانه الحق ، أي في جيبه، ثم ، وبعد أن فرغ من ارتداء ثيابه ووضع سيجاراً فخماً بين شفتيه والمونوكل فوق عينه، غادر مكتب بارنيت وشركاه.

رسالة غرام من الملك جورج

طرق بعضهم الباب بينما كان مسيو بارنيت ، بمكتب بارنيت وشركاه يغفو فوق مقعده، في انتظار عميل، فقال :

-ادخل.

وعندما رأى الوافد الجديد صاح قائلاً :

-آه . المفتش بيشو! .. جميل جداً منك أن تزورني .. كيف حالك أيها الصديق العزيز؟

كان المفتش بيشو يختلف في المظهر، وفي المسلك، عن النمط المألوف لرجال البوليس، فقد كان مفرط الأناقة يعنى بعقدة رباط عنقه وينشي ياقة قميصه.. كان شاحب الوجه، طويل القامة، نحيف الجسم، بادي الضعف ولكن له ذراعان ضخمان ورأس قوية يبدو كما لو أنه استعارها من أحد أبطال الملاكمة، وعلقها كيفما اتفق على جسده بوزن الريشة.. وكان فخوراً به على كل حال، ويرتسم على ملامحه مرح صبياني دائم، ونظرته لا تخلو من الذكاء والحدة. وأجاب على سؤال بارنيت :

-مررت بك في طريقي، ولما كنت أعرف عاداتك المنظمة، فقد قلت لنفسي: آه . هذه هي الساعة التي يستجم فيها جيم بارنيت، وإذا أنا توقفت..

أكمل جيم بارنيت عبارته قائلاً :

-لكي اسأله المشورة.

اعترف المفتش بيشو الذي كان يدهشه ذكاء بارنيت فقال :

-ربما.

ومع ذلك فقد بدا عليه التردد.. فقال له بارنيت:

-ما الخبر إذن؟.. هل تبدو لك الاستشارة صعبة؟

ضرب المفتش المنضدة بقبضته ضربة قوية وقال:

-الواقع أنني متردد إلى حد ما، فقد اتفق أن اشتركنا معاً في العمل ثلاث مرات، في تحقيقات عويصة، أنت بصفتك مخبراً سرياً وأنا بصفتي كمفتش بوليس، وخيل إلي في المرات الثلاث أن الأشخاص الذين طلبوا معونتك، ومنهم البارونة أسرمان بالذات يفترقون عنك وهم يشعرون نحوك بضغينة ما.

قاطعه بارنيت قائلاً :

-كما لو أنني انتهزت الفرصة ومارست معهم الإبتزاز.

-كلا . لا أريد أن أقول هذا.

ربت بارنيت على كتفه وقال :

لا تنس أيها المفتش شعار المكتب:" استعلامات مجانية".. حسناً، أقسم لك بشرفي أنني لم أطالب عملائي بأي شيء ، وأنني لن أقبل منهم شيئاً أبداً .

تنفس بيشو في ارتياح وقال :

-أشكرك .. أنت تعرف طبعاً أن ضميري المهني لا يسمح لي أن أتعاون معك إلا ببعض الشروط، ولكن الواقع ، واسمح لي أن أكون متطفلاً، ما هي موارد المكتب؟

-إن كثيرين من رجال الخير يمولونني ، وهم يريدون الاحتفاظ بالسرية.

و لم يصر المفتش بيشو، في حين استطرد بارنيت :

-والآن يا بيشو.. أين وقعت القضية التي أتت بك إلي؟

-على مقربة من مارلي.. قتل رجل اسمه فوشيريل ,فهل سمعت عنه؟

-في شيء من الغموض .

-لا يدهشني ذلك فإن الجرائم لم تهتم بهذه الجريمة بعد ، رغم غرابتها الشديدة.

-إنه قتل بطعنة سكين ، أليس كذلك؟

-نعم.. بين كتفيه.

-وهل هناك بصمات أصابع على السكين؟

-كلا.. لا ريب أن مقبض السكين كان ملفوفاً بقطعة من الورق، فقد وجدناها بين الرماد.

-أليست هناك أدلة أخرى؟

-ولا دليل واحد.. لا شيء غير الفوضى.. الأثاث مقلوب، وأحد أدراج المكتب مكسور، ولكن لم نتمكن من معرفة سبب كسره أو ما الذي أخذه القاتل.

-وعلام أسفر التحقيق؟

-إن رجال التحقيق يقومون الآن بعمل مواجهة بين السيد ليبوك، وهو موظف متقاعد، وبين أبناء العم جودو الثلاثة.. وهم ثلاثة من أسوأ الأشرار، مهورون بالسلب والنهب وسرقة الدجاج والطيور.. وكل من الجانبين يتهم الآخر ، وذلك دون أي دليل، بارتكاب الجريمة.. هل تريد أن نمضي بالسيارة لحضور الاستجواب؟

-هلم بنا.

-ولكن لي كلمة أخيرة يا بارنيت.. إن المسيو فورميري الذي يقوم بالتحقيق في القضية يريد لفت الأنظار إليه للفوز بوظيفة في باريس، وهو قاسٍ دقيق وحساس، لن يطيق دعاباتك وتهكماتك التي يحلو لك أن توجهها إلى رجال العدالة.

-أعدك يا بيشو أ أعامله بما يليق به من احترام.

في منتصف الطريق بين بلدة فونتين وغابة مارلي، يقوم وسط قطعة من الأرض بيت صغير من طابق واحد، منخفض الجدران، وبه بستان متواضع للخضر يعرف باسم الكوخ كان يقطنه قبل ذلك بثمانية أيام كتبي قديم يدعى فوشيريك، لم يكن يغادر مملكته الصغيرة من الزهور والخضر إلا لكي يمضي، من وقت لآخر، إلى باريس للتنقيب عن الكتب على أرصفتها.. وكان معروفاً بشدة بخله وثرائه، رغم أنه كان يعيش عيشة متواضعة.. لم يكن يستقبل أحداً أبداً، فيما عدا صديقه ليبوك الذي يقطن في فونتين.

وكان قد تم إعادة تمثيل الجريمة واستجواب السيد ليبوك.. وكان القضاة يتجولون في الحديقة عندما هبط جيم بارنيت والمفتش بيشو من السيارة .. وقدم بيشو نفسه لرجال الشرطة الذين يحرسون البيت، فسمحوا له بالدخول، فمضى ومعه بارنيت، وانضما إلى قاضي التحقيق ووكيل النيابة في اللحظة التي توقفا فيها بجوار أحد الجدران. وبدأ أبناء العم جودو الإدلاء بأقوالهم.. كانوا ثلاثة من الرجال الأجلاف الذين يعملون في المزارع لمن يريد استخدامهم، لا يجمع بينهم شيء غير تعبير ماكر وعنيد على وجوه متنافرة.. وقال أكبرهم:

-نعم يا سيدي القاضي.. إننا أسرعنا هنا لنجدة القتيل.

-وهل كنتم قادمين من فونتين؟

-ونعم وكنا عائدين إلى العمل في الساعة الثانية ونتحدث مع الأم ونيز بالقرب من هنا عندما بدأت الصرخات، فقلت: هناك من يستغيث، والصوت صادر من" الكوخ". وكنا نعرف أن مسيو شوفيريل يقيم فيه يا سيدي القاضي، فأسرعنا ووثبنا فوق السور رغم قطع الزجاج التي تعلوه ، واجتزنا الحديقة.

-وأين كنتم بالتحديد عندما انفتح باب البيت؟

قال جودو الأكبر وهو يتقدم الجماعة إلى قطعة منبسطة من الأرض :

-هنا بالذات.

قال قاضي التحقيق وهو يشير إلى الدرجتين اللتين تؤديان إلى البهو :

-أي على بعد خمسة عشر مراً من السلم.. ومن هذا المكان رأيتم؟

-مسيو ليبوك نفسه.. رأيته كما أراك الآن.. كان يسرع بالخروج، كما لو أنه ينشد الفرار ..وعندما رآنا أسرع بالدخول من جديد.

-هل أنت واثق من أنه كان مسيو ليبوك؟

-كل الثقة.. وأقسم على ذلك.

تحول القاضي إلى الشابين الآخرين مستفهماً، فأقسما بأنهما رأيا مسيو ليبوك بالذات.

-ألا يمكن أن تكونا قد أخطأتما؟ .. قال الأكبر:

-إنه يقيم بجوارنا ، في فونتين منذ خمسة أعوام، بل إنني ذهبت إليه باللبن مراراً.

أصدر القاضي أوامره، ففتح باب البهو، وأقبل من الداخل رجل في الستين من عمره، يرتدي ثوباً من الكتان المحبوك، وعلى رأسه قبعة من القش، له وجه باسم ومتورد.. وقال أبناء العم الثلاثة في وقت واحد :

-مسيو ليبوك.

وتكلم وكيل النيابة فقال :

من الواضح أنه لا يمكن أن يقع أي خطأ من هذه المسافة وأن أبناء العم جودو الثلاثة لم يخطئوا في شخصية الهارب.. قال القاضي:

-بالتأكيد . ولكن هل يذكرون الحقيقة؟.. وهل رأوا مسيو ليبوك حقاً؟

ودخل الجميع البيت، وانتقلوا إلى قاعة فسيحة بدت جدرانها كأنها مكسوة بالكتب.. و لم يكن بها غير بضع قطع من الأثاث: منضدة كبيرة، تلك التي انكسر أحد جوانبها، وصورة بالحجم الطبيعي وبدون إطار لفوشيريل نفسه.. رسم تخطيطي بالألوان، كما لو أن رساماً فاشلاً قد حاول أن يبرز شخصية الرجل .

وعلى الأرض تمثال بالحجم الطبيعي للقتيل .

وعاد القاضي يقول :

-ألم ترى يا جودو مسيو ليبوك ثانية عندما دخلت؟

-كلا . وإنما سمعنا أنيناًينبعث من هنا فأسرعنا على الفور.

-إذن فقد كان فوشيريل لا يزال على قيد الحياة ؟

-أوه.. كان في حال ميئوس منها بالطبع.. راقداً على صدره والسكينين كتفيه.. وجثونا بجواره.. كان المسكين ينطق ببعض الكلمات.

-وهل سمعتموها ؟

-لم ينطق إلا بكلمة واحدة رددها أكثر من مرة فقد قال:"مسيو ليبوك"، ومات وهو يتلوى .. وجرينا عندئذٍ في كل مكان، ولكننا لم نجد لمسيو ليبوك أثراً.. ولا ريب أنه هرب من نافذة المطبخ، وكانت مفتوحة، ثم مضى من الطريق الضيق الذي يغطيه الحصى حتى بيته.. وذهبنا عندئذٍ، نحن الثلاثة إلى مركز الشرطة، وروينا ما حدث.

ألقى القاضي بضة أسئلة أخرى.. وأوضح من جديد التهمة التي يوجهها أبناء العم الثلاثة نحو ليبوك ..ثم تحول إلى هذا الأخير، وكان مسيو ليبوك قد أصغى إليهم دون أن يقاطعهم، وحتى دون أن يزايله هدوءه، أو أن يبدو عليه أي تأثير.. بل على العكس، فيبدو أن أقوال أبناء العم جودو بدت له من الحماقة والغباء بحيث لم يبد بها أي اهتمام، كما بدا له أنها لم تحدث أي تأثير في رجال العدالة هم الآخرون.. وسأله القاضي قائلاً :

-أليس عندك ما تقوله يا مسيو ليبوك؟

-لا جديد عندي.

-أما زلت تؤكد؟..

-ما زلت أؤكد ما تعرفونه مثلي يا سيدي القاضي، وأعني الحقيقة.. أن أهلي فونتين الذين استجوبتموهم أكدوا لك أن مسيو ليبوك لا يبرح بيته أبداً أثناء النهار، فإنهم يأتونه بطعام الغداء من الحانة ويمضي وقته من الساعة الواحدة حتى الرابعة في القراءة أمام نافذته، ويدخن غليونه. والجو كان صحواً في ذلك اليوم. كانت نافذتي مفتوحة، وقد رآني خمسة أشخاص، كما اعتادوا أن يروني كل يوم من خلال سور حديقتي .

-إنني استدعيتهم لاستجوابهم آخر النهار.

-هذا حسن .. سيؤكدون لك ما سبق أن أدلوا به، وهو أنني لا أستطيع أن أكون هنا وفي بيتي في وقت واحد، وسوف تتأكد يا سيدي القاضي أنهم لم يروني أخرج من "الكوخ" .. وأن صديقي فوشيريل لا يمكن أن يكون نطق باسمي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأن أبناء العم الثلاثة لئام وأوغاد بناءاً على ذلك.

-وترد إليهم تهمة القتل، أليس كذلك؟.

-أوه . هذا مجرد افتراض.

-ومع ذلك، فإن الأم دنيز، وهي امرأة مسنة تجمع الحطب، تقول أنها كانت تتحدث مع أبناء العم الثلاثة في اللحظة التي ارتكبت فيها الجريمة.

-كانت تتحدث مع اثنين منهم، فأين كان الثالث؟

-كان واقفاً خلفها.

-وهل رأته؟

-إنها تظن ذلك. ولكنها ليست متأكدة.

-من الذي يثبت لك إذن يا سيدي القاضي أن ابن العم الثالث لم يكن واقفاً وراءها، وأنه هو الذي ارتكب الجريمة؟ ومن الذي يثبت لك أن الاثنين الآخرين لم يثبا فوق السور لنجدة القتيل وإنما لكتم صوته والإجهاز عليه.

-إذا كان الأمر كذلك فما الذي يحملهم على اتهامك أنت بالذات؟

-انني أملك أرضاً صغيرة للصيد، وأبناء العم جودو لصوص صيد متمرسون، وقد ألقي القبض عليهم مرتين متلبسين واليوم ينتقمون مني بتوجيه الإتهام إلي حتى لا يتهمهم أحد بارتكاب تلك الجريمة.

-هذا مجرد افتراض منك، ولكن لماذا يقتلونه؟

-لا أدري.

-ألا يمكن أن تعرف ما الذي سرق من الدرج؟

-كلا يا سيدي القاضي.. إن صديقي فوشيريل، وهو لم يكن ثرياً كما يقال، وقد أودع مدخراته في أحد البنوك، و لم يكن يحتفظ بشيء لديه .

-ألم يكن يحتفظ بأي شيء ثمين؟

-كلا.

-وكتبه؟

-ليس لها أية قيمة، كما يمكن أن تتأكد من ذلك بنفسك.. وكان يندم على ذلك، فقد كان يود لو أن يكون لديه بعض الكتب النادرة والمجلدات القديمة.. ولكن لم تكن موارده تسمح له بذلك.

-ألم يحدثك قط عن أبناء العم جودو؟

-أبداً .. ورغم رغبتي الشديدة في الانتقام لموت صديقي المسكين، فلا أريد أن أقول شيئاً قد يبعد عن الحقيقة.

واستمر الاستجواب .. وضيق قاضي التحقيق على أولاد العم الثلاثة في الأسئلة.. ولكن المواجهة لم تأت بأية نتيجة.. وبعد أن أوضح رجال التحقيق بعض النقاط، انتقلوا إلى فونتين.

كان بيت مسيو ليبوك يقع في أطراف المدينة، و لم يكن بأكثر أهمية من "الكوخ"، ويحيط بالحديقة سور مرتفع.. ومن خلال القضبان الحديدية للباب العمومي يرى المرء، بعد بقعة مستديرة من الأرض الخضراء بيتاً من الطوب، مطلياً باللون الأبيض، وبينه وبين الباب العمومي من خمسة عشر إلى عشرين متراً تماماً كالكوخ .

وطلب القاضي من مسيو ليبوك أن يجلس في نفس المكان الذي كان يجلس فيه في يوم الجريمة، فجلس أمام نافذته، وفوق ركبتيه كتاب، وغليونه بين شفتيه.

لم يكن في هذه الناحية أيضاً أي خطأ ممكن، فإن كل عابر يمر أمام الباب ويلقي نظرة إليه لم يكن يسعه إلا أن يرى مسيو ليبوك بكل وضوح. وأكد الفلاحون الخمسة أقولهم بحيث أن وجود مسيو ليبوك في بيته ما بين الظهر والساعة الرابعة لا يمكن أن يرقى إليه أي شك، كوجوده بالذات أمام قاضي التحقيق في هذه اللحظة.. وقد أعرب رجال البوليس عن حيرتهم أمام وكيل النيابة وقاضي التحقيق.. وانتهز بيشو الفرصة وقدم لهذا الأخير صديقه بارنيت على أنه مخبر سري على قدر كبير من الذكاء والموهبة .ونظر قاضي التحقيق إليه ملياً ثم قال:

-هذه قضية معقدة أيها السيد، فما رأيك؟

وقال بيشو وهو يأتي بحركة يذكره بها أن يكون مجاملاً:

-نعم ، ما رأيك؟

وكان جيم بارنيت قد اشترك في التحقيق دون أن ينطق بكلمة واحدة. وقد سأله بيشو أكثر من مرة، ولكنه كان يكتفي بهز رأسه ويتمتم ببضع كلمات غير مفهومة، وأجاب في رفق :

-هي معقدة جداً في الواقع يا سيدي القاضي .

-أليس كذلك؟ والواقع أن كفتي الميزان متعادلتان بين المتهمين، فهناك، من ناحية الدليل القاطع بأن مسيو ليبوك لم يبرح بيته في أصيل ذلك اليوم، ثم أن قصة أبناء العم الثلاثة تبدو من غير شائبة، من ناحية أخرى.

-من غير شائبة حقاً. فعلى اليمين أو على اليسار هناك بالتأكيد مؤامرة ومهزلة ولكن أهما من ناحية اليمين أم من ناحية اليسار.. أتكون البراءة في جانب أبناء العم الثلاثة، اللصوص الأشرار، ذوي الوجوه الشرسة الضارية، أو يكون الجاني هو مسيو ليبوك البشوش المتورد

الوجه والهادئ الرزين.. أم يجب التسليم بأن وجوه كل المتهمين مطابقة للدور الذين قاموا به فيكون مسيو ليبوك بريئاً وأبناء العم جودو الثلاثة هم الجناة؟

قال مسيو فورميري في ارتياح:

-صفوة القول أنك لم تحرز أي تقدم مثلنا.

قال بارنيت في توكيد:

-بل الوقع أنني أحرزت تقدماً كبيراً.

عض قاضي التحقيق شفتيه وقال:

-أطلعنا إذن على ما توصلت إليه.

-لن أتردد في ذلك في الوقت المناسب.. وإنني أطلب منك اليوم يا سيدي القاضي أن تستدعي شاهداً جديداً فقط.

-شاهد جديد؟

-نعم.

سأله مسيو فورميرى وهو شديد الحيرة:

-وما اسمه؟.. وما عنوانه؟

-لا أعرفه.

-إيه ..ماذا تقول؟

بدأمسيو فورميرى يتساءل إن لم يكن المخبر السري الذكي والموهوب يسخر منه.. وأحس بيشو بالقلق.. وأخيراً انحنى جين بارنيت نحو مسيو فورميرى وأشار بإصبعه إلى مسيو ليبوك، وكان يقف بعيداً عنهم ويدخن غليونه في هدوء، وأسر إليه قائلاً:

-في الجيب السري لمحفظة مسيو ليبوك بطاقة من بطاقات الزيارة، بها أربعة ثقوب وعليها اسم الشاهد وعنوانه.

و لم يتردد المفتش بيشو وبدون إبداء أية حجة حصل على محفظة مسيو ليبوك وفتحها، وأخرج منها بطاقة بها أربعة ثقوب متباعدة، وبها هذا الإسم: الآنسة اليزابيث لوفنديل، وعنوانها مكتوب بالقلم الأزرق "فندق فندوم "بباريس.

نظر قاضي التحقيق ووكيل النيابة إلى بارنيت في دهشة.. وتألق وجه بيشو في حين صاح مسيو ليبوك بدون أي انزعاج :

-يا إلهي !.. لكم بحثت عن هذه البطاقة، وبحث عنها صديقي المسكين فوشيريل.

-ولماذا كان يبحث عنه؟

-آه. الحق أنني لا أعرف يا سيدي القاضي.. لعله كان بحاجة إلى العنوان المكتوب عليها.

-وهذه الثقوب الأربعة؟

-هي ثقوب أحدثتها بمثقاب لكي أشير إلى النقاط الأربع في لعبة الايكارتيه، وهي لعبة من ألعاب الورق كما تعرفون. وقد ربحت فيها أربع نقط واضطررنا إلى تأجيل بقية اللعبة، فثقبت البطاقة لكي أتذكر المواضع الأربعة عندما نستأنف اللعب من جديد.. ولا ريب أنني وضعت هذه البطاقة في محفظتي سهواً مني.

كان التفسير يبدو معقولاً تماماً، وطبيعياً.. وقبله مسيو فورميرى بحماس، ولكن بقيت هناك نقطة، وهي كيف استطاع جيم بارنيت أن

يخمن وجود هذه البطاقة في الجيب السير بمحفظة رجل لم يسبق له أن رآه من قبل..!

لم يوضح بارنيت هذه النقطة أبداً. وإنما ابتسم برفق، وطلب في إصرار استدعاء اليزابيث لوفنديل.. واستجابوا لطلبه.

لم تكن الآنسة لوفنديل موجودة في باريس، و لم تأت إلا بعد ثمانية أيام و لم يتقدم التحقيق خلال ذلك الأسبوع، رغم أن مسيو فورميرى تابع أبحاثه بإصرار تسبب فيه جيم بارنيت ..وقال المفتش بيشو لهذا الأخير، بعد ظهر ذلك اليوم، وهم مجتمعون في الكوخ:

-إنك أثرت سخطه بحيث أنه قرر أن يرفض معونتك.

-هل يجب أن أنسحب؟

-كلا، فهناك جديد.

-في أي معنى؟

-أعتقد أنه اتخذ قراراً.

-هذا أفضل.. لا ريب أنه اتخذ القرار الخاطئ .. سوف نلهو.

-أرجوك بارنيت.. شيء من الاحترام.

-شيء من الاحترام واللامبالاة.. أعدك بذلك يا بيشو.. إن مكتب بارنيت يعمل بالمجان.. ولكنني أؤكد لك أن صاحبك مسيو فورميرى يثير أعصابي.

كان السيد ليبوك ينتظر منذ نصف ساعة. وهبطت الآنسة لوفنديل من السيارة، ثم أقبل مسيو فورميرى وكله نشاط وحماس وهتف يقول على الفور:

-صباح الخير يا مسيو بارنيت. هل تأتينا بأنباء جديدة؟

-ربما يا سيدي القاضي.

-حسناً . وأنا أيضاً لدي أنباء.. ولكن يجب أن نفرغ أولاً من شاهدتك، وبأسرع وقت ممكن، فهي لن تأتينا بأية فائدة، وكل هذا مضيعة للوقت.

كانت اليزابيث لوفنديل فتاة متقدمة في السن، وخط المشيب شعرها تدل ثيابها على أنها لا تهتم بمظهرها وتتكلم الفرنسية كما لو كانت فرنسية المولد، ولكن بذلاقة بحيث يجد المستمع إليها صعوبة في فهم ما تقول .

وما أن دخلت حتى أسرعت تقول بدون أي مقدمات:

-مسكين مسيو فوشيريل.. قتل.. رجل طيب جداً، وغريب الأطوار، تريد أن تعرف إذن إذا كنت أعرفه.. ليس كثيراً .. التقيت به مرة واحدة فقط.. أتيت لأعقد معه صفقة.. أردت أن أشتري منه شيئاً، و لم نتفق على السعر، وكان يجب أن أراه بعد أن أستشير إخوتي، وهم أناس معروفون، وأصحاب محلات مشهورة للبدالة في لندن.

حاول مسيو فورميرى أن يوقف هذا السيل الجارف من الكلمات فقال :

-وما الذي كنت تريدين شراءه يا آنسة؟

-ورقة صغيرة.. صغيرة جداً، وقديمة ومصفرة بحيث تبدو كورقة من أوراق البصل.

-وهل لها قيمة؟

-قيمة كبيرة بالنسبة لي.. وقد أخطأت إذ قلت له ذلك.. ولك أن تعلم يا عزيزي مسيو فورميرى أن أم جدتي، دوروتي الجميلة قد عشقها الملك جورج الرابع نفسه، وأنها احتفظت برسائل الحب الثماني عشرة التي تلقتها منه في ثمانية عشر مجلداً من كتاب طبعة ريتشاردسون، رسالة في كل كتاب. وعند موتها وجدت أسرتنا المجلدات فيما عدا المجلد الرابع عشر الذي اختفى وفيه الرسالة الرابعة عشر، وهي أكثر الرسائل أهمية لأنها تثبت أن دوروثي الجميلة قد أخلت بواجبها قبل مولد ابنها الأكبر بتسعة شهور. وإنك لتفهم الآن أيها الطيب مسيو فورميرى مبلغ سعادتنا بالعثور على تلك الرسالة، فإنها تثبت أننا من سلالة الملك جورج، ابن عم الملك الحالي، وتتيح لنا المجد والألقاب.

وتنهدت إليزابيث لوفنديل، واستطردت في سرد محاولاتها مع مسيو فوشيريل:

ثم إننا بعد ثلاثين سنة من البحث والإعلانات علمنا أيها الطيب مسيو فوشيريل أن بعض الكتب بيعت في أحد المزادات العلنية من بينها المجلد الرابع عشر من كتاب ريتشاردسون .. وأسرعت إلى الشاري، وهو صاحب مكتبة على رصيف فوليتير، فأحالني إليك لأنه باعك المجلد المذكور أمس.

وقال لي مسيو فوشيريل الطيب:

-هذا صحيح.. وأراني الكتاب فقلت له:

-ستجد الرسالة الرابعة عشرة فيه، تحت الغلاف.

وفحص الكتاب فاصفر لونه وقال:

-كم تدفعين ثمناً لها؟

رأيت عندئذ أنني كنت حمقاء، فلو لم أتكلم عن الرسالة لاستطعت الحصول على الكتاب مقابل خمسين فرنكاً.. وعرضت عليه ألفاً فراح يرتجف وطلب عشرة آلاف، فقبلت، ولكنه فقد عقله، وفقدت عقلي أنا الأخرى، كما يحدث في المزاد فقال عشرين ألفاً ثم ثلاثين وأخيراً طالب بخمسين ألفاً، وصاح يقول في جنون وقد جحظت عيناه خمسين ألفاً ..لا ينقصون صلدياً واحداً, وبذلك أستطيع أن أشتري كل الكتب التي أريدها.. خمسين ألف فرنك..

وأراد دفعة على الحساب على الفور، شيكاً.. فوعته بأن أعود فألقى بالكتاب في درج هذا المكتب وأغلقه بالمفتاح وتركني أنصرف.

وأتمت إليزابيث لوفنديل قصتها ببضع نقاط لا جدوى منها لم يهتم بها أحد.. وكان هناك شيء لفت اهتمام جيم بارنيت والمفتش بيشو، وهو أن مسيو فورميرى توترت ملامحه، وكان واضحاً أنه أصبح يشعر بانفعال شديد وبفرحة غامرة.. وهمس أخيراً في صوت أصم وفي عجرفة كبيرة:

-أفهم من هذا يا آنسة أنك تنشدين المجلد الرابع عشر من الكتاب.

صاحت الإنجليزية في حماس كبير:

-هل هذا ممكن ؟

-ها هو . ولكن رسالة غرام الملك جورج لا توجد به، وإلا لوجدتها. ولكنني سوف أعثر عليها لأنني اهتديت إلى الكتاب الذي تبحثون عنه منذ مائة سنة ما دام سارق الكتاب لا بد أن يكون سارق الرسالة في نفس الوقت.

وراح مسيو فورميرى يمشي جيئة وذهاباً بعض الوقت ويداه خلف ظهره وهو يتذوق انتصاره المسبق. وفجأة ربت بأصابعه على المكتب في رفق وقال:

-إننا نعرف أخيراً الدافع إلى القتل.. كان هناك من يصغي إلى حديث الآنسة لوفنديل ومسيو فوشيريل، ورأى هذا الأخير وهو يضع الكتاب في الدرج. وبعد بضعة أيام قام ذلك الرجل بجريمة القتل للحصول على الكتاب ولكي يبيع فيما بعد الرسالة رقم 14.. فمن كان ذلك الرجل؟ كان واحداً من أبناء العم جودو.. وقد كنت أشك دائماً في أن الجاني واحداً منهم. وأثناء تفتيشي بيتهم أمس لاحظت فجوة بين أحجار المدفأة، فوسعتها ووجدت فيها كتاباً كان من الواضح أنه أحد كتب فوشيريل.. والمعلومات التي قدمتها لنا الآنسة لوفنديل والتي لم نكن نتوقعها تؤكد اشتباهي تماماً. سأصدر الآن أمراً بإلقاء القبض على أبناء العم الثلاثة بتهمة قتل وسرقة مسيو فوشيريل واتهام مسيو ليبوك.

ومد يده إلى مسيو ليبوك في زهو واحترام، فأفاض هذا الأخير في شكره.. ثم اصطحب الآنسة لوفنديل إلى سيارتها برفق، وعاد بعد ذلك إلى الآخرين وهتف يقول :

-أظن أن هذه القضية ستثير ضجة كبيرة، وستتيح لمسيو فورميى الطموح الإنتقال إلى باريس.

وبدأوا المسيرة نحو بيت أبناء العم جودو حيث أصدر القاضي أمره بإلقاء القبض عليهم.. وكان الجو صحواً .وراح مسيو فورميرى يتقدم، يحيط به مسيو ليبوك وبيشو وجيم بارنيت، وقد ترك العنان لابتهاجه وزهوه وقال في صوت ساخر :

-أرأيت يا عزيزي بارنيت. سارت القضية على أحسن ما يكون، وبطرقة مخالفة لتوقعاتك، لأنك والحق يقال كنت معادياً لمسيو ليبوك.

قال بارنيت:

-الحق أنني أعترف يا سيدي القاضي بأن تلك البطاقة اللعينة قد خدعتني تصور أنها كانت موجودة فوق أرضية غرفة مسيو فوشيريل عندما واجهنا مسيو ليبوك، وأن مسيو ليبوك اقترب منها ووضع قدمه اليمنى فوقها بكل بساطة. وعندما انصرف، انصرف بها وهي ملصقة بحذائه، وانتزعها في الخارج ووضعها في محفظته.. وبعد أن انصرف لاحظت أن كعب حذاءه ترك في الأرض آثار أربعة ثقوب متباعدة، وأن السيد ليبوك أدرك أنه نسي تلك البطاقة فوق الأرض، و لم يشأ أن نعرف اسم وعنوان إليزابيث لوفنديل والواقع أن الفضل يرجع إلى تلك البطاقة في..

انفجر مسيو فورميرى ضاحكاً وقال:

-ولكن هذه أمور صبيانية يا عزيزي بارنيت، ويا لها من تعقيدات لا جدوى منها. وكيف أمكن أن تضل هكذا؟ إن أول مبدأ من مبادئي يا بارنيت أن أتجنب المتاعب، وأن أكتفي بالحقائق التي نجدها أمامنا دون أن أحاول تطبيقها بأي شكل على أفكار مسبقة.

وكانوا يقتربون من بيت مسيو ليبوك، في طريقهم إلى بيت أبناء العم جودو .وأمسك مسيو فورميرى بذراع مسيو بارنيت واستطرد في حديثه الودي عن الوسائل البوليسية.

-إن خطأك الوحيد يا بارنيت هو أنك لم تسلم بتلك الحقيقة البسيطة .وهي عدم إمكان وجود نفس الشخص في مكانين مختلفين في نفس الوقت. كل الحقيقة هنا، فإن مسيو ليبوك، وهو جالس يدخن أمام نافذته لا يمكن أن يقتل في نفس الوقت مسيو فوشيريل في بيته.. انظر.. إن مسيو ليبوك يسير خلفنا، أليس كذلك؟ وها هو الباب الحديدي العمومي لبيته على بعد عشرة أمتار منا .. حسناً.. إن من المستحيل تصور معجزة بحيث يمكن أن يكون مسيو ليبوك خلفنا الآن وأن يكون جالساً في نفس الوقت أمام نافذته.

ولكن مسيو فورميرى توقف مذهولاً، وأطلق صيحة دهشة.. فسأله بيشو:

-ما الخبر؟

أشار فورميرى بيده إلى البيت وقال:

-هناك... هناك.

رأى من خلال القضبان الحديدية للباب، على بعد عشرين متراً أمام نافذة البيت.. مسيو ليبوك، مع أنه كان في نفس الوقت واقفاً معهم على الرصيف.

رؤيا مخيفة، تثير الهلع.. شبح مخيف.. وتشابه غريب فمن ذلك الرجل الذي يقوم هناك بدور السيد ليبوك الذي يمسك مسيو فورميرى بذراعه.

فتح بيشو الباب، وراح يركض. وانطلق مسيو فورميرى هو الآخر نحو الصورة الشيطانية للسيد ليبوك وهو يناديه ويهدده.. ولكن بدا أن الصورة لم تتأثر و لم تتحرك ما دامت لا تزيد عن لوحة من القماش كما تحققوا منها بأنفسهم! لوحة في إطار النافذة.. صورة بالحجم الطبيعي لمسيو ليبوك وهو جالس يقرأ ويدخن، تماماً كلوحة مسيو فوشيريل.

واستدار مسيو فورميرى.. كان مسيو ليبوك البشوش المتوردالوجه يقف وراءه.. و لم يكن قد استطا ع الصمود أمام تلك الضربة المفاجئة فانهار، كما لو أن مطرقة أصابته على أم رأسه، وراح يبكي في غباء ويقول:

-فقدت عقلي.. وضربته دون إرادة مني.. أردت أن يقاسمني المبلغ ولكنه رفض.. وعندئذ فقدت عقلي.. وطعنته على غير إرادتي.

وسكت وخلال الصمت الذي تبع ذلك دوى صوت جيم بارنيت، حاداً وقاسياً وساخراً، وهو يقول:

-ما رأيك أنت الآن يا سيدي القاضي؟ إنه لعصفور جميل هذا الرجل! لقد أعد خطته بكل مهارة بحيث يستطيع أن يثبت أنه كان بعيداً عن مكان الجريمة، إذ كيف يخطر لمن يمر أمام بيته ويرى صورته من النافذة أنه ليس ليبوك وإنما صورة له بالحجم الطبيعي.. إنني ارتبت في أمره منذ أول يوم، وعندما رأيت صورة فوشيريل.. أفلا يمكن أن يكون نفس الرسام قد رسم صورة للسيد ليبوك هو الآخر؟ لقد بحثت و لم يطل بحثي لأن ليبوك كان واثقاً من أننا من الغباء بحيث لا يمكن أن نهتدي إلى الحقيقة.. ووجدت الصورة ملفوفة في المخزن تحت أكداس من الأدوات المهملة.. وكان من السهل علي أن أضعها أمام النافذة منذ قليل بينما كان يمضي إلى لقاءك.. وهكذا ترى أنه يستطيع أن يكون في "الكوخ" وأن يجلس أمام نافذته ويدخن غليونه في نفس الوقت.

وكان جيم بارنيت عنيفاً، وصوته الحاد يقطع المسكين فورميرى تقطيعاً.

-ترى، ماذا عساه ارتكب في حياته من عمل شريف.. وما أجمل حيلته في استيلائه على بطاقة الآنسة لوفنديل بواسطة كعب حذائه.. ثم ذلك الكتاب الذي دسه بعد ظهر هذا اليوم في مدخنة آل جودو.. وكنت أتبعه عن كثب والخطاب الذي أرسله إليك من غير توقيع والذي جعلك تنقض على بيتهم. يا لخبثك يا مسيو ليبوك.. إنك أضحكتني كثيراً بوجهك البشوش النظيف.. قبحك الله !

امتقع مسيو فورميرى, وبذل جهداً كبيراً لكي يتمالك نفسه ونظر إلى ليبوك ملياً ثم قال أخيراً :

-لا يدهشني هذا.. نظرة زائفة ووجه مجامل.. يا لك من وغد.

واستطرد يقول وقد عصف به الغضب فجأة:

-نعم، وغد، وسأمضي بك من أقصر طريق.. ولكن إلي بالرسالة أولاً الرسالة رقم14. أين هي؟

تمتم ليبوك وهو لا يستطيع المقاومة:

-في جوف الغليون المعلق لصق الحائط بالغرفة التي إلى اليسار.. لم أفرغ الرماد من هذا الغليون والرسالة موجودة بداخله.

أسرعوا بالدخول إلى الغرفة.. ووجد بيشو الغليون، وأفرغ الرماد منه ولكنه لم يجد أي شيء بداخله.. لم تكن هناك أية رسالة، الأمر الذي أثار دهشة واضطراب السيد ليبوك، وضاعف من غضب مسيو فورميرى بحيث صاح:

-كذاب ومحتال ونصاب وقاتل.. آه، تأكد أنك سوف تتكلم غداً أيها الوغد، وأنك سوف تعيد إلي هذه الرسالة.

ولكن عيني بيشو التقتا في هذه اللحظة بعيني بارنيت, وكان هذا الأخير يبتسم.. وضغط بيشو على قبضتيه في عنف وقد فهم الآن أن لمكتب بارنيت وشركاه طريقة خاصة للتعامل مجاناً.. وعرف كيف يستطيع جيم بارنيت أن يعيش عيشة مترفة رغم أنه لا يطالب عملاءه بأي صلدي نظير خدماته.

واقترب منه وهمس :

-إنك لقدير حقاً، وإن عملك هذا لجدير بأرسين لوبين.

قال بارنيت في سذاجة:

-ماذا؟

-أعني استيلائك على الرسالة خلسة من الجميع.

-آه، هل خمنت ذلك؟

-طبعاً.

-ماذا تريد.. إنني أجمع خطوط ملوك فرنسا.

بعد ثلاثة شهور من ذلك استقبلت إليزابيث لوفنديل جنتلماناً وجيهاً جداً قال لها أنه يستطيع أن يأتيها برسالة غرام الملك جورج الرابع نظير مبلغ زهيد، مائة ألف فرنك !

وكانت المفاوضات شاقة، واستشارت إليزابيث إخوتها وهم أكبر تجار للبقالة في لندن، فماطلوا في البداية ورفضوا ثم وافقوا أخيراً.

وقبض الجنتلمان الوجيه المائة ألف فرنك، واستولى في نفس الوقت على شاحنة حافلة بأنواع البقالة ..ولم يدر أحد كيف تمكن من الاستيلاء عليها..

لعبة الباكارا

عندما خرج جيم بارنيت من المحطة كان المفتش بيشو ينتظره، وأخذه هذا الأخير من ذراعه وهو يقول:

-أسرع لا يجب أن نضيع دقيقة واحدة، فقد يتفاقم الموقف ما بين لحظة وأخرى.. قال جيم بارنيت في شيء من المنطق :

-يخيل إلي أن الضرر يكون أعظم لو أنني عرفت ما هو الموقف، فقد أتيت بناءاً على برقيتك ومن غير أن أعرف أية معلومات.

قال المفتش:

-هكذا أردت.

-إذن فأنت لم تعد تتوخى الحذر مني يا بيشو.

-بل إنني أتوخى الحذر منك دائماً يا بارنيت، ومن وسائلك في تسوية أمورك مع عملاء مكتب بارنيت... ولكنك في هذه المناسبة لن تحصل على شيء يا عزيزي، فلأول مرة سوف تعمل بالمجان حقاً.

وراح جيم بارنيت يصفر، وقد بدا أن هذا الإحتمال لم يزعجه.. ونظر بيشو إليه شزراً وقد استولى عليه القلق فجأة، وكأنه يريد أن يقول له.. لو أنني أستطيع الإستغناء عن خدماتك يا صاحبي.

وبلغا الساحة.. وكانت هناك سيارة تنتظر، رأى بارنيت فيها سيدة جالسة يبدو الحزن في وجهها، وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وشفتاها متوترتان من فرط الإنفعال ..وفتحت الباب على الفور، وقام بيشو بواجب التعارف فقال:

-جيم بارنيت يا سيدتي، وهو الرجل الوحيد الذي، كما قلت لك في مقدوره أن يساعدك.. السيدة فوجيريه، زوجة المهندس فوجيريه الذي يوشك أن يواجه بتهمة.

-أي تهمة؟

-تهمة القتل.

صفق جيم بارنيت بلسانه بين شفتيه، فقال بيشو باستياء،

-أرجو أن تلتمسي العذر لصديقي بارنيت يا سيدتي، فكلما بدت له القضية خطيرة كلما أحس بالإرتياح.

وكانت السيارة قد انطلقت نحو أرصفة روين، وانعطفت إلى اليسار وتوقفت أمام بيت كبير يشغل الطابق الثالث منه النادي النورماندي.. وقال بيشو :

-هنا يجتمع كبار التجار ورجال الصناعة بروين والأماكن المجاورة، لقراءة الجرائد ولعب البريدج أو البوكر، وعلى الخصوص يوم الجمعة لأنه يوم البورصة.. وحيث أنه لا يوجد في ساعة الظهيرة هذه غير الخادمات فسأستطيع أن أروي لك ما حدث في هدوء.

كانت هناك ثلاث قاعات كبيرة بطول الواجهة مزودة بالأثاث والرياش والسجاجيد الفاخرة، وتتصل بالقاعة الثالثة منها غرفة صغيرة على هيئة قبة تؤدي نافذتها الوحيدة إلى شرفة كبيرة تطل على أرصفة نهر السين.

فجلسوا ثلاثتهم ومدام فوجيريه على مبدة.. وقال بيشو:

-منذ بضعة أسابيع إذن، في يوم جمعة، بعد أن تناول أربعة من أعضاء النادي العشاء راحوا يلعبون البوكر. كانوا أربعة أصدقاء.. من كبار رجال صناعة النسيج بماروم وهي مركز مصانع الغزل والنسيج، على مقربة من ردين.. ثلاثة منهم متزوجون ولهم أولاد وحاصلون على أوسمة وهم ألفريد أوفار، وراوول دوبان، ولويس باتينيه، أما الرابع فأعزب وأصغر سناً ويدعى ماكسيم تويلييه.. وفي نحو منتصف الليل انضم إليهم شاب آخر يدعى بول إرستين، وهو ثري وتدر عليه ثروته إيراداً كبيراً يسمح له بأن يعيش عاطلاً بدون عمل.. وكانت القاعات قد بدأت تخلو من روادها شيئاً فشيئاً، فبدأ الخمسة يلعبون الباكارا.. وكان بول أرستين معروفاً بغرامه وبراعته في هذه اللعبة فقام بتوزيع الورق.

وأشار بيشو إلى إحدى النوافذ وقال:

-كانوا يلعبون هنا، على هذه المنضدة.. وكان اللعب هادئاً جداً في البداية، عادياً وبدون اهتمام كبير، ولكنه لم يلبث أن اشتد واحتد

شيئاً فشيئاً عندما أمر بول أرستين أن يأتوهم بزجاجتين من الشمبانيا.. وبدءاً من تلك اللحظة بالذات انقلب الحظ من صالح بول.. حظ عجيب غير عادل مثير ومحنق.. كان بول أرستين يربح في كل دور في حين يخسر الباقون الذين استولى عليهم الغيظ فراحوا يضاعفون المراهنات.. وليس هناك أي جدوى من أن أسعب في هذه الناحية، فقد كانت النتيجة أن رجال الصناعة الأربعة خسروا كل ما معهم في الساعة الرابعة صباحاً، خاصة وأنهم كانوا قد جاؤوا بأموالهم لدفع أجور عمالهم، وكان ماكسيم تويلييه مديناً دين شرف لبول أرستين بمبلغ ثمانين ألف فرنك فوق خسارته.

وأخذ بيشو نفساً طويلاً ثم استأنف قصته فقال:

-وفجأة وقع أمر مفاجئ.. أمر مفاجئ حقاً، ويجب أن أعترف بذلك، سهله بول أرستين بمجاملته ونزاهته المفرطة، فقد قسم المبلغ الإجمالي لأربعة أقسام مطابقة لخسائر زملائه، ثم قسم كل قسم منها إلى ثلاثة أقسام أخرى وعرض عليهم أن يلعبوا الأدوار الثلاثة الأخيرة.. وخسر بول أرستين في المرات الثلاث، وقد انقلب حظه. وبعد ليلة من النضال لم يكن هناك رابح أوخاسر، ونهض بول أرستين وهو يقول:" هذا أفضل.. فقد شعرت بالخجل شيئاً ما، ولكن سحقاً إن بي صداعاً شديداً.. ألا يريد أحد أن يأتي ويدخن سيجاراً معي"، ومضى إلى الغرفة الصغيرة .. وانقضت بضع دقائق، بقي الأصدقاء الأربعة خلالها يتحدثون في مرح عن مراحل اللعبة التي انتهت، ثم قرروا الرحيل واجتازوا القاعة الثانية ثم الأولى وقالوا للخادم الذي يقوم بالحراسة والذي كان يغفو في البهو:" لا يزال مسيو أرستين هنا يا جوزيف، وسوف ينصرف بعد قليل"، ثم خرجوا، كانت الساعة قد بلغت الرابعة والدقيقة الخامسة والثلاثين. وكانت سيارة ألفريد أوفار في الإنتظار فعادت بهم إلى ماروم، كما يحدث كل يوم جمعة.. وانتظر جوزيف، الخادم، ساعة ثم أحس بالتعب من نوبته الليلية فمضى إلى بول أرستين ووجده جثة هامدة في الغرفة الصغيرة.

وتوقف المفتش عن حديثه مرة ثانية.. وكانت مدام فوجيريه قد ظلت مطرقة برأسها إلى الأرض حتى هذه اللحظة.. ومضى جيم بارنيت مع المفتش إلى الغرفة الصغيرة المنعزلة وفحصها، ثم سأل:

-وعلام تستند هذه القصة؟

-على الإيضاحات التي أدلى بها الرجال الأربعة الذين كانوا هنا.

-ألا يمكن أن يكونوا أخطأوا؟

-كلا.. إن أقوالهم متطابقة تماماً.. وهم من رجال الصناعة المعروفين، رجال متزنون، يعرفون ما يقولون ويزنون أقوالهم جيداً.

-حسناً.. والآن إلى الهدف مباشرة يا بيشو.. ماذا أسفر عنه التحقيق؟

-تبين أن بول أرستين تلقى ضربة عنيفة على صدغه من آلة حادة صرعته على الفور.. لم يكن هنالك أي أثر للمقاومة فيما عدا أن ساعة بول أرستين تحطمت عند الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والخمسين، أي بعد عشرين دقيقة من انصراف اللاعبين.. لم يكن هناك أي أثر يدل على السرقة، فالخاتم والأوراق المالية كانت موجودة.. ولا أثر للقاتل الذي لم يستطع الدخول أو الخروج من البهو لأن جوزيف لم يغادر مكانه.

-لا يوجد أثر إذن؟

تردد بيشو ثم قال:

-بل هناك أثر صغير وخطير جداً، ففي أصيل اليوم أشار أحد زملائي لقاضي التحقيق أن شرفة هذه الغرفة تقع على مسافة منخفضة

جداً من شرفة بالطابق الثالث لبيت مجاور.. وانتقلت النيابة إلى ذلك البيت، ويقيم في الطابق الثالث منه مهندس يدعى فوجيريه كان متغيباً منذ الصباح، وقادت مدام فوجيريه رجال التحقيق إلى غرفة زوجها. واتضح أن شرفة تلك الغرفة مجاورة للغرفة الصغيرة بالنادي.. ويمكنك أن ترى ذلك بنفسك يا بارنيت.

اقترب بارنيت وقال:

-متر وعشرون سنتيمتراً تقريباً .. من السهل عبوره.. ولكن لا شيء يثبت أن ذلك حدث.

-بل هناك شيء.. فبطول الدرابزين صناديق من الخشب معدة لوضع الزهور وما زالت تحتفظ بترابها منذ الصيف الماضي. وبتفتيشها عثر في أحدها، وهو أقربها، تحت قبضة خفيفة من التراب على قبضة أمريكية. وقد تحقق الطبيب الشرعي أن إصابة القتيل مطابقة تماماً لشكل تلك القبضة، و لم يكن عليها أي أثر لأي بصمات لأن المطر لم يتوقف عن الهطول منذ الصباح.. ولكن التهمة تبدو دامغة، فإن المهندس فوجيريه رأى بول أرستين في الغرفة المضيئة فاجتاز الشرفة وارتكب جريمته ثم أخفى أداة الجريمة.

-ولكن لماذا يرتكب هذه الجريمة؟ هل كان يعرف بول أرستين؟

-كلا.

-إذن؟

أبدى بيشو إشارة من يده وكانت مدام فوجيريه قد اقتربت وراحت تصغي إلى أسئلة بارنيت.. وكان يبدو أنها تبذل جهداً كبيراً لتتغلب على دموعها، وأنها تعاني من فرط السهر.. وقالت في صوت مختلج:

-أنا التي سأرد على سؤالك أيها السيد.. وسأفعل ذلك في بضع كلمات وبصراحة تامة، وسوف تفهم دون أي مشقة ..كلا.. لم يكن زوجي يعرف بول أرستين، ولكنني كنت أعرفه.. التقيت به مراراً في باريس عند إحدى صديقاتي، وقد غازلني على الفور، وأنا أشعر نحو زوجي بمحبة كبيرة ولدي شعور عميق بواجباتي كزوجة، وعلى هذا قاومت الميل الذي شعرت به نو بول أرستين.. ولكنني رضيت أن أقابله في مرات مختلفة في الضواحي والأرياف..

-وهل كتبت له؟

-نعم.

-والخطابات بين يدي أسريه؟

-بل مع أبيه.

-مع أبيه الذي يريد أن ينتقم لابنه بأي ثمن ويهددك بأن يسلم تلك الخطابات للبوليس؟

-نعم.. وهذه الخطابات تثبت طبيعة علاقتنا البريئة، ولكنها تثبت أيضاً أنني كنت ألتقي به دون علم زوجي، وأحدها يحتوي على هذه العبارات:" أتوسل إليك يا بول أن تلتزم جادة العقل فإن زوجي شديد الغيرة وعنيف جداً، وإذا ارتاب في سلوكي فلن يحجم عن شيء"، وهذا الخطاب سوف يعطي للموقف تفسيراً جديداً، أليس كذلك؟ فستكون الغيرة هي الدافع الذي يبحث عنه البوليس ويفسر الجريمة واكتشاف سلاحها أمام غرفة زوجي بالذات.

-ولكن هل أنت واثقة يا سيدتي أن مسيو فوجيريه لم يكن لديه أي شك؟

-كل الثقة.

-وبالنسبة لك فهو برئ؟

أسرعت تقول على الفور: أوه دون شك.

حدق بارنيت في عينيها ملياً، وأدرك أن اقتناع تلك المرأة قد أثر على بيشو إلى حد أنه، رغم الحقائق، ورغم رأي النيابة، ورغم كتمانه المهني، قد صح منه العزم على مساعدتها.

وألقى بارنيت بضعة أسئلة أخرى، وبعد أن فكر طويلاً قال:

-لا أستطيع أن أعطيك أي أمل يا سيدتي، فالمنطق يقول أن زوجك مذنب، ولكنني سأحاول، مع ذلك، أن أكذب المنطق.

توسلت إليه المرأة قائلة:

-امض لرؤية زوجي فربما تسمح لك أقواله..

-لا فائدة من ذلك يا سيدتي، إن معاونتي لك لن يكون لها أي دافع إلا إذا اعتقدت منذ البداية أن زوجك برئ، وإذا وجهت أبحاثي إلى هذه الناحية.

وانتهى الحديث، وبدأ بارنيت العمل على الفور، ومضى برفقة المفتش بيشو إلى والد القتيل وقال له دون لف أو دوران:

-مسيو أرستين، كلفتني مدام فوجيريه بمساعدتها.. أما زالت لديك النية في تسليم النيابة الخطابات التي كتبتها لابنك؟

-اليوم بالذات أيها السيد.

-ألا تتردد في توريط وهلاك المرأة التي أحبها ابنك أكثر من أي امرأة أخرى؟

-لو أن زوج تلك المرأو قتل ابني فيؤسفني ذلك من أجلها.. ولكنني سأنتقم لابني.

-انتظر خمسة أيم أيها السيد.. سأكشف القناع عن القاتل القيقي يوم الثلاثاء القادم.

خمسة أيام استخدمها بارنيت بطريقة أثارت حيرة المفتش بيشو، فقد استجوب وجند الكثيرين من الموظفين الثانويين، وانفق الكثير من المال.. ومع ذلك فلم يبد ارتياحاً كبيراً وكان، خلافاً لعادته، صموتاً وحاد المزاج.

وفي صباح يوم الثلاثاء زار مدام فوجيريه وقال لها:

-استطاع بيشو أن يحصل من النيابة على إعادة تمثيل مراحل تلك الليلة، ولا بد من حضورك وحضور زوجك، وأرجو أن تلزمي الهدوء مهما يحدث وألا يثيرك أي شيء.

تمتمت: هل هناك أمل؟

-أنا نفسي لا أدري.. إنني أتصرف أنا وبيشو، كما سبق أن قلت لك، بناءاً على اعتقادك.. أعني ببراءة مسيو فوجيريه، سنحاول اثبات هذه البراءة استناداً إلى نظرية ممكنة.. ولكن سيكون الأمر شاقاً.. افتراضاً على أ،ني لو وضعت يدي على الحقيقة فيمكن لهذه الحقيقة أن تفلت في آخر لحظة، أليس كذلك يا بيشو؟

كان وكيل النيابة وقاضي التحقيق من الرجال المدققين الذين يبنون آرائهم على الحقائق الملموسة، ولا يحاولون تفسيرها بآراء مسبقة.. فقال بيشو:

-إنني أخشى أن تدخل معهما في نزاع، وأن تسخر منهما بسهولة يا بارنيت فقد منحاني الحرية لكي أتصرف كما يحل لي.. أو بالأحرى، كما يحلو لك أنت، فلا تنس ذلك.

أجابه بارنيت: أنا لا أبدي أية سخرية أيها المفتش إلا إذا كنت واثقاً من الإنتصار، والحال ليس كذلك اليوم.

كان هناك أناس كثيرون يزحمون القاعة الثالثة. وراح رجال العدالة يتبادلون الحديث فيما بينهم على عتبة الغرفة الصغيرة بالذات، حيث دخلوا ثم خرجوا منها بعد لحظات.. ورجال الصناعة الأربعة ينتظرون، ورجال الشرطة يروحون ويغدون، ومسيو أرستين والد القتيل يقف وحيداً، وكذلك الخادم جوزيف.. ووقف مسيو فوجيريه وزوجته في أحد الأركان، وكان متجهم الوجه، تدل ملامحه على القلق.. وكانت هي أشد شحوباً عما كانت، فقد أصبح معلوماً أنه تقرر القبض على المهندس.

خاطب أحد رجال التحقيق الرجال الأربعة فقال:

-ستقوم النيابة أيها السادة بتمثيل ما حدث مساء يوم الجمعة.. فليتكرم كل منكم بالجلوس حول منضدة الباكارا في نفس المكان الذي كان يجلس فيه تلك الليلة، وستقوم أنت يا مسيو بيشو بدور الموزع، في نفس المكان الذي كان يجلس فيه مسيو بول أرستين. هل طلبت من هؤلاء السادة إحضار نفس عدد الأوراق المالية التي كانت معهم في ذلك اليوم؟

أجاب بيشو بالإيجاب، وجلس في منصف المنضدة.. وجلس ألفريد أوفار وراوول دوبان على يساره ولويس باتينيه وماكسيم تويلييه على يمينه وكانت هناك ست مجموعات من أوراق اللعب.. وقطع بيشو الورق وقام بالتوزيع.

وحدث شيء عجيب.. فقد كان الحظ حليف الموزع كما حدث في ليلة المأساة، وربح بيشو بكل سهولة، كما فعل أرستين فبينما كان يسحبورقة ثماني أو تسعة كانت الخسارة من نصيب الآخرين وظل الأمر كذلك حتى انتهى الدور الأول.

كان هذا الإستمرار يبدو آلياً، وإذا جاز لنا القول، بدا كأن هناك شيئاً غامضاً، مما أثار الحيرة، خاصة وأنه كان تكراراً لحقيقة سبق لهم أن عانوا منها.. وارتبك ماكسيم وأخطأ مرتين، فعيل صبر بارنيت وأخذ مكانه بالقوة، وجلس على يمين بيشو.

وبعد ست دقائق لأن الأحداث كانت تسير بسرعة، كانت نصف الأوراق النقدية التي أخرجها اللاعبون الأربعة من محافظهم قد زحمت المفرش الأخضر، أمام بيشو، وبدأ ماكسيم تويلييه، بواسطة جيم بارنيت، يخسر بكلمة شرف.. دائماً التكرار الصحيح لما سبق أن حدث.

وتسارع الإيقاع، وبلغ اللعب نهايته القصوى.. وفجأة فعل بيشو كما فعل بول أرستين، فقد قسم أرباحه أربعة أقسام مطابقة لخسارة كل من اللاعبين الأربعة، ومنحهم فرصة المغامرة بكل شيء.

تابعه الغرماء ببصرهم وقد تأثروا في الظاهر بذكرى الليلة المفجعة.

ووزع بيشو الورق ثلاث مرات.

وثلاث مرات بدلاً من أن يخسر كما حدث مع بول أرستين، فقد ربح بيشو وسرت الدهشة بين الحضور.. لماذا لم يجانب الحظ بيشو كما حدث مع بول أرستين؟ وإذا كان الحظ لم يتخل عن بيشو كما فعل مع بول أرستين، فهل معنى هذا أنه لم يتخل عن بول أرستين في ليلة المأساة وأنه ظل يربح حتى النهاية؟ وهل يجب الإعتقاد أن هذا التحول قد دبره بارنيت وبيشو لكي يبينا كيف تمت اللعبة الحقيقية بين اللاعبين الخمسة ليلة المأساة؟

ونهض بيشو كما سبق أن نهض أرستين، وطبقاً للدور الذي يقوم به وضع في جيبه رزم النقود الأربع ثم اشتكى من صداع كما فعل بول أرستين ومضى إلى الشرفة وهو يشعل سيجارته.

ورأوه من بعيد، عبر باب الغرفة الصغيرة.

وبقي الأربعة الآخرون جامدين، لا يتحركون في مقاعدهم، متوتري الوجوه ..الأربعة.. أي دوفا ودوبان وباتينيه.. وجيم بارنيت الذي

أخذ محل ماكسيم تويلييه.

ونهض جيم بارنيت بدوره، وقد أفلح في أن يكسب وجهه وسحنته هيئة ماكسيم تويلييه الذي أضناه اللعب وأرهقته الخسارة وقام بدوره.. كان ماكسيم شاباً في الثلاثين من العمر، وذقنه جرداء ويرتدي نظارة ذهبية من نوع العوينات على أنفه، بادي المرض والقلق.. بدا جيم بارنيت هكذا. وتقد إلى الغرفة الصغير في بطء، وفي خطوات آلية، يرتسم على وجهه تارة تعبير قاسٍ وشرس، وتارة أخرى تردد وخوف.. تعبير رجل قد يقوم بتنفيذ عمل فظيع، أو ربما الهرب كجبان قبل أن ينفذ ما ينوي عليه.

لم ير اللاعبون وجهه.. ولكن رآه رجال التحقيق.. وشيعوا بأعينهم جيم بارنيت، الممثل الذين يخضعون لسلطانه، و لم يفكروا إلا في ماكسيم تويلييه اللاعب الخاسر الذي يمضي لملاقاة غريمه الرابح، الذي يمضي لملاقاة بول أرستين حامل رزم الأوراق النقدية الأربع.. لأي غرض يمضي إليه؟ كان وجهه يفضح بلبلة ذهنه.. هل سيتوسل أم يأمر أم يهدد؟ عندما دخل الغرفة الصغيرة كان هادئاً جداً.

وأغلق الباب خلفه.

إعادة تمثيل المأساة .. مأساة وهمية أو حقيقة.. كانت حية، وانتظر الجميع في صمت.. وانتظر اللاعبون الثلاثة هم الآخرون وعيونهم معلقة على الباب المغلق الذي يدور خلفه ما دار في ليلة المأساة والذي لم يكن خلفه جيم بارنيت والمفتش بيشو الذان يقومان بدور القاتل والقتيل، وإنما ماكسيم تويلييه وبول أرستين اللذان يتشاجران.

ثم، بعد دقائق طويلة، خرج القاتل من الغرفة، وهل يمكن أن ندعوه بغير هذه الصفة.. وألم يكن في الواقع هو ماكسيم تويلييه.. عاد إلى أصدقائه وهو يترنح والذعر في عينيه.. وكانت رزم النقود الأربع في يده، وألقى واحدة منها فوق المنضدة ودس الثلاث الأخرى بالقوة في جيوب الثلاثة الآخرين وهو يقول لهم: تفاهمت مع بول أرستين وكلفني بأن أعيد إليكم هذه النقود فهو لا يريدها، فهلموا بنا ننصرف.

وانتهت التمثيلية واعتدل جيم بارنيت وعاد.. جيم بارنيت من جديد. وعلى بعد أربع خطوات منه كان ماكسيم تويلييه الحقيقي، يعمد على ظهر مقعد وقد اصفر لونه وانقلبت سحنته.. وقال له جيم بارنيت:

–هكذا حدث الأمر يا مسيو ماكسيم تويلييه، أليس كذلك؟ لقد أعدنا تمثيل الجريمة بكل تفاصيلها، وأجدت القيام بالدور الذي قمت أنت به في تلك الليلة، أليس كذلك؟ ألم تقع الجريمة هكذا؟.. جريمتك؟

بدا كأن ماكسيم تويلييه لا يستطيع أن يسمع، فقد أطرق برأسه، وتخاذلت يداه، وغدا أشبه بتمثال، أقل نفخة قد تؤدي إلى وقوعه، وترنح كما يترنح الرجل السكران، وتهالك فوق مقعده.

وعندئذ انقض جيم بارنيت عليه وأمسك بتلابيبه وقال:

–أنت تعترف، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يكون الأمر قد حدث بغير ذلك، ومهما يكن فأنا أملك كل الأدلة، وأستطيع أن أثبت أنك كنت تحمل دائماً تلك القبضة الحديدية، ثم أن خسارتك في اللعب أفلستك تماماً.. نعم.. إن تحرياتي أثبتت أن أعمالك كانت كانت على شفا الهاوية و لم تكن تستطيع سداد ديونك في مواعيد استحقاقها.. وكان معنى ذلك إعلان إفلاسك.. وعندئذٍ ضربت ضربتك.. و لم تعرف ماذا تفعل بالقبضة، فوثبت إلى الشرفة المجاورة وأخفيتها في أحد الصناديق.

و لم يكن بارنيت بحاجة إلى كل ذلك الجهد، فإن ماكسيم تويلييه لم يبد أي مقاومة، فقد حطمه ثقل الجريمة الفظيعة التي ارتكبها، والتي يحمل عبئها منذ أسابيع، وراح يتمتم، رغماً عنه وبدون أي وعي، كمريض يحتضر، كلمات الإعتراف.

وامتلأت القاعة بالضجة، وانحنى قاضي التحقيق فوق المذنب وراح يسجل الإعتراف اللا إرادي.. وأراد والد بول أرستين أن ينقض على القاتل، وراح المهندس يصرخ غضباً.. ولكن أصدقاء ماكسيم كانوا هم الأكثر غضباً، وخصوصاً أكبرهم سناً وأكثرهم شهرة، وهم ألفريد أوفار فقد راح يرميه بأقذع الكلمات.

-ما أنت إلا مجرم.. حملتنا على الإعتقاد بأن ذلك المسكين رد لنا أموالنا في حين أنك سرقتها بعد أن قتلته.

ورمى بربطة النقود في وجه ماكسيم تويلييه.. واستولى السخط على الإثنين الآخرين، وراحا يدوسان الأوراق المالية.

وعاد الهدوء شيئاً فشيئاً، ونقلوا ماكسيم تويلييه إلى غرفة أخرى وهو مغشي عليه تقريباً، والتقط بارنيت الأوراق الماليه وناولها للمحققين.

وسمع هؤلاء لمسيو فوجيريه وزوجته بالإنصراف، وكذلك لوالد بول أرستين، ثم هنأوا جيم بارنيت لذكائه.. وقال هذا الأخير:

-كل هذا، أعني انهيار ماكسيم تويلييه ما هو إلا الناحية المبتذلة في المأساة، والغرابة فيها أنها تبدو كما لو كانت مأساة غامضة جداً، في حين أنها ليست إلا حدثاً عادياً تسبب فيه شيء آخر، ورغم أن هذا لا يخصني.

وأمسك وتحول إلى رجال الصناعة الثلاثة الذين كانوا يتحدثون في صوت خافت، واقترب منهم وربت على كتف مسيو أوفار برفق وقال له:

-هل تسمح لي بكلمة يا سيدي؟

-بخصوص؟

-بخصوص الدور الذي قمت به أنت وصديقاك يا سيدي.

-ولكننا لم نقم بأي دور على الإطلاق.

- لم يكن دوراً فعالاً بالطبع.. ومع ذلك فهناك بعض التناقضات المزعجة.. ويكفيني أن أشير إليها، فأنتم قد أعلنتم في صباح يوم الجريمة أن لعبة الباكارا انتهت في النهاية لصالحكم، وهو ما ألغى خسارتكم وجعلكم تقررون الإنصراف بهدوء.. ولكن هذا الإعتراف تنقضه الحقائق.

هز مسيو أوفار رأسه وقال:

-الواقع أن هناك سوء فهم، والحقيقة أن الأدوار الثلاثة الأخيرة ضاعفت خسارتنا.. ونهض بول أرستين وتبعه ماكسيم تويلييه وهو يبدو رابط الجأش إلى الغرفة الصغيرة لكي يدخن سيجارة في حين أننا بقينا ثلاثتنا نتبادل الحديث.. وعندما عاد، ربما بعد سبع أو ثماني دقائق، وقال لنا أن بول لم ينظر إلى هذه اللعبة كما لو كانت جدية، وإنه إنما كان يشرب الشمبانيا ويلعب لمجرد اللهو والتسلية وأنه متمسك بأن يعيد إلينا نقودنا ولكن على شرط ألا يعرف أحد بذلك أبداً. ونتيجة اللعبة ستعتبر، إذا ما تحدث عنها أحد كما لو كانت للتعويض الحق للخسائر التي لحقت بنا.

صاح بارنيت:

-وقبلتم مثل ذلك العرض؟.. هدية لا يبررها أي شيء. وإذ قبلتموها لم تذهبوا لتشكروا بول أرستين، المعروف بأنه مقامر محنك ومعتاد على الربح والخسارة يتنازل عن حظه بكل سهولة؟.. يا لها من أمور غير معقولة ومستبعدة.

-كنا في الساعة الرابعة صباحاً، وأذهاننا تغلي، و لم يترك لنا ماكسيم متسعاً من الوقت للتفكير ثم، لماذا لا نصدقه، ما دمنا كنا نجهل أنه

قتل وسرق.

-ولكنكم عرفتم في صباح اليوم التالي أنه قتل.

-هذا صحيح.. ولكنه قتل بعد رحيلنا، وهو الأمر الذي لم يغير شيئاً من إرادته التي عبر عنها.

-ألم يتطرق إليكم الشك في ماكسيم تويلييه لحظة واحدة؟

-وبأي حق؟.. إنه واحد منا.. وأبوه كان صديقي، وأعرفه منذ طفولته، كلا.. إننا لم نشتبه في شيء.

-هل أنت على يقين من ذلك؟

وتابع بارنيت هجومه على الفور فقال في هدوء:

-الواقع أن كل هذه القضية يسيطر عليها عنصر نفسي من الثقة التي توحون بها.. لم تكن الجريمة لتقع حقاً إلا من الخارج أو من الداخل. ولكن التحقيق اتجه على الفور إلى الخارج بسبب جوهري وهو أنه لا يمكن الإشتباه في مجموعة الشرف والنزاهة التي يتكون منها رجال الصناعة الأربعة الأثرياء والحاصلون على الأوسمة والمشهورون بالسمعة الطيبة.. لو أن واحداً منكم، ولو أن ماكسيم تويلييه لعب القمار بمفرده مع بول أرستين لارتقت إليه الشبهة بلا ريب.. ولكنكم أربعة لاعبين ..ونجا ماكسيم مؤقتاً بصمت الأصدقاء الثلاثة، فلم يتصور أحد قط أن ثلاثة رجال محترمين ولهم مكانتهم يمكن أن يكونوا شركاء.. ومع ذلك فهذا ما حدث، وهذا ما خمنته أنا على الفور.

أجفل ألفريد أوفار وقال:

-ولكنك مجنون أيها السيد.. أنكون شركاء في الجريمة؟

-أوه، إنني لا أقول ذلك، فإنك كنت تجهل بالطبع ما كان ينوي ماكسيم تويلييه أن يفعل في الغرفة الصغيرة عندما تبع بول أرستين.. ولكنك كنت تعرف أنه ماضٍ إليه وهو في حالة ذهنية خاصة.. وعندما خرج كنت تعرف أن شيئاً ما قد حدث.

- لم نكن نعرف شيئاً.

-بل كنتم تعرفون.. فإن جباناً كصديقكم لا يقتل من غير أن تحتفظ سحنته بتعبير من الخوف و الجنون.

-أؤكد لك أننا لم نر شيئاً.

- لم تشاؤوا أن تروا

-و لم؟

-لأنه أعاد إليكم المبالغ التي خسرتموها.. نعم.. إنني أعرف أنكم أثرياء أنتم الثلاثة، ولكن لعبة الباكارا أخلت بتوازنكم ومثل جميع المقامرين خامركم إحساس بأنه سلبكم نقودكم وعندما أعيدت إليكم تلك النقود قبلتموها من غير أن تريدوا معرفة الطريقة التي حصل صديقكم عليها. تمسكتم بالصمت في يأس.. وفي صباح اليوم التالي.. والأيام التي تلته، بعد اكتشاف الجريمة، حرص كل منكم على عدم اللقاء بالآخر من فرط خوفكم من معرفة ما يدور في ذهن كل منكم.

-هذه مجرد افتراضات.

-بل يقين تأكدت منه بتحقيق دقيق قمت به في محيطكم فإن اتهامكم لصديقكم يعني الإعلان عن ضعفكم ويلفت النظر إليكم، وإلى عائلاتكم، ويلقي بالظلال على ماضيكم المشرف الذي لا يشوبه شيء.. فإن معنى ذلك الفضيحة، فلزمتم الصمت وخدعتم بذلك

العدالة، وأمنتم صديقكم منها.
ألقى الإتهام بكل عنف.. وأخذت المأساة بعداً أليماً بحيث أن مسيو أوفار تردد لحظة.. ولكن جيم بارنيت غير مجرى الحديث فجأة بأن راح يضحك ثم قال:

-ولكن اطمئن أيها السيد.. إنني أفلحت في القضاء على صديقكم ماكسيم بأن زيفت اللعبة الأخيرة وجعلته يشهد جريمته ولكنني لم أكن أملك أية أدلة ضده، كما أنني لا أملك أدلة ضدكم، وأنتم لستم من أولئك الناس الذين ينهارون بسهولة، خاصة وأنني أعود وأقول أن اشتراككم غامض، وغير منطقي، ويدور في منطقة لا يمكن للعين أن تراها. ولهذا فليس هنالك ما تخشونه.. ولكنني..

وازداد اقتراباً من محدثه، ووقف وجهاً لوجه أمامه وقال:

-ولكنني أردت أن لا تنعموا بالأمان أو الراحة، فمن فرط تمسككم بالصمت والنباهة بلغ بكم الأمر أنتم الثلاثة إلى أن تتناسوا اشتراككم الإختياري تقريباً.. كلا.. لا يجب أن يكون هذا.. تذكروا دائماً أنه لو أنكم منعتم صديقكم من أن يتبع بول أرستين إلى الغرفة الصغيرة فإنه ما كان ليموت.. وعلى هذا تدبروا أمركم مع العدالة أيها السادة.

وأخذ جيم بارنيت قبعته، وقال لقاضي التحقيق دون أن يعبأ باحتجاجات الرجال الثلاثة:

-كنت قد وعدت مداد فوجيريه بنجدة زوجها، كما وعدت والد بول أرستين بأن أكشف القناع عن الجاني، وقد أنجزت وعدي وانتهت مهمتي.

شد رجال التحقيق على يد جيم بارنيت في غير حماس.. ومن المحتمل أن مرافعته لم ترق لهم كثيراً، وأنهم لم يكونوا على استعداد لمجاراته في هذه الناحية.

وقال للمفتش بيشو عندما لحق به على البسطة:

-إن الرجال الثلاثة يتمتعون بحصانة كبيرة ولا يمكن حتى التفكير في استجوابهم، فهم من كبار البرجوازيين المعروفين بسمعتهم الطيبة، وثرائهم الطائل، ثم أنهم من أعمدة المجتمع، ولا أملك ضدهم غير شكوكي واستنتاجاتي، ولا تجرؤ العدالة على أن تمسهم بسوء.. ولكن ذلك لا يهمني، فقد أنجزت مهمتي على أحسن ما يكون.

وافقه بيشو قائلاً:

-وبكل شرف.

-بكل شرف؟

-أجل. فقد كان بمقدورك أن تلتقط بكل سهولة الأوراق المالية في طريقك.. وقد خشيت ذات لحظة أن تفعل ذلك.

قال بارنيت في وقار: من تظنني أيها المفتش بيشو؟

ثم خرج من البيت، ومضى إلى البيت المجاور حيث شكره الزوجان فوجيريه بحماس كبير.. وبكل وقار رفض مكافأتهما، كما قابل بنفس الوقار المكافأة التي عرضها عليه والد بول أرستين وقال: إن مكتب بارنيت يعمل بالمجان، وفي هذا قوته وأصالته .إننا نعمل من أجل المجد.
وسدد جيم بارنيت حسابه في الفندق، وأصدر أوامره بأن تنقل حقيبته إلى المحطة.. ولما كان يفترض أن يعود بيشو معه إلى باريس فقد أخذ طريقه عبر الأرصفة، ودخل مبنى النادي. وتوقف في الطابق الأول وهو يرى بيشو يهبط.

كان يهبط مسرعاً.. وعندما رأى بارنيت صاح في لهجة غاضبة: ماذا فعلت بالأوراق المالية؟

رد عليه بارنيت في براءة: أية أوراق؟

-تلك التي أمسكتها بين يديك عندما كنت في الغرفة الصغيرة وأنت تقوم بدور ماكسيم تويلييه.

-كيف هذا؟ ولكنني أعدت الرزم الأربعة.. وأنت بالذات قد هنأتني على ذلك منذ لحظة أيها الصديق العزيز.

صاح بيشو:

- لم أكن أعرف ما عرفته الآن.

-وماذا عرفت؟

-أن الأوراق المالية التي أعدتها زائفة.

وازداد غضب بيشو وأردف يقول: ما أنت إلا لص .آه، هل كنت تظن أننا سنسكت على ذلك؟ سوف تعيد الأوراق الحقيقية، والآن فوراً، فإن الأوراق الأخرى زائفة، وأنت تعلم ذلك تماماً.

واختنق صوته، وراح يهز جيم بارنيت بعنف وغضب، ولكن هذا الأخير انفجر ضاحكاً، ثم قال:

-آه يا للأوغاد! لا يدهشني هذا منهم.. إذن كانت الأوراق التي ألقوها في وجه ماكسيم زائفة. يا للأوغاد !يأمرونهم بالمجئ بأموالهم فيأتون بأوراق زائفة.

صاح بيشو وقد خرج عن طوره: ولكن ألا تفهم أن هذه النقود ملك لورثة القتيل.. لقد ربحها بول أرستين، ويجب على الآخرين أن يعيدوها إليهم.

لم يعد لمرح بارنيت أي حدود وصاح: آه، هذه ثالثة الأثافي.

صرخ بيشو: أنت الذي سرقتهم. نعم، أنت الذي قمت بعملية الإستبدال.. أنت الذي أخذت النقود.. أيها الوغد.. أيها النصاب.

وعندما خرج رجال التحقيق من النادي رأوا بيشو يلوح بيديه من غير أن يصدر منه صوت، وهو في حالة من الهياج الشديد، وأمامه جيم بارنيت، معتمداً على الجدار وهو لا يتمالك نفسه من فرط الضحك، وعيناه مغرورقتان بالدموع وهو غارق في نوبة من الضحك.

تكمل

- ما أنت إلا لص . آه .. هل كنت تظن اننا سنسكت على ذلك ؟ سوف تعيد الأوراق الحقيقية ، والآن فورا ، فإن الاوراق الأخرى زائفة ، وانت تعلم ذلك تماماً .

واختنق صوته ، وراح يهز جيم بارنيت بعنف وغضب ، ولكن هذا الأخير انفجر ضاحكاً ، ثم قال :

- آه .. ياللأوغاد ! لا يدهشنى هذا منهم .. اذن كانت الاوراق التى ألقوها فى وجه مكتبم زائفة .. ياللأوغاد ! يامرونهم بالمجئ بأموالهم فيأتون بأوراق زائفة .

صاح بيشو وقد خرج عن طوره :

- ولكن ألا تفهم ان هذه النقود ملك لورثة القتيل .. لقد ربحها بول أرستين ، ويجب على الآخرين أن يعيدوها إليهم .

لم يعد لمرح بارنيت أى حدود وصاح :

- آه .. هذه ثالثة الأثافى .

صرخ بيشو :

- انت الذى سرقتهم .. نعم ، انت الذى قمت بعملية الاستبدال .. انت الذى أخذت النقود .. أيها الوغد .. أيها النصاب .

وعندما خرج رجال التحقيق من النادى رأوا بيشو يلوح بيديه من غير أن يصدر منه صوت ، وهو فى حالة من الهياج الشديد ، وامامه جيم بارنيت ، معتمداً على الجدار وهو لا يتمالك نفسه من فرط الضحك ، وعيناه مغرورقتان بالدموع وهو غارق فى نوبة من الضحك .

***

٤ ذو الأسنان الذهبية

رفع جيم بارنيت ستارة النافذة التى تطل على الشارع ، بمكتب بارنيت وشركاه وراح يضحك فى صمت .. واضطر ان يجلس لأن نوبة الضحك التى استولت عليه خذلت ساقيه وقال :

- آه .. ما أغرب هذا .. لم أتوقع هذا أبداً .. بيشو قادم لزيارتى .. هذا عجيب والله .

سأله بيشو بمجرد دخوله :

- ما هو العجيب ؟

وراح يتأمل ذلك الرجل الذى يضحك ويتمتم بكلمات وهو يلهث وعاد يقول

- ما العجيب ؟

- زيارتك طبعاً .. كيف هذا ؟ أتجرؤ بعد قصة النادى بروبن على المجئ هنا .. ما أعجب أمرك يا بيشو !

كان بيشو يبدو مرتبكا جداً بحيث أن بارنيت أراد أن يتمالك نفسه ولكنه لم يستطع ، فراح يضحك فى مرح وهو يسعل سعالاً يكاد يخنقه :

- معذرة ياصديقى العزيز بيشو ، فإن الأمر غريب جداً ، فهاهو ممثل

العدالة يأتيني بعصفور جديد لكي انتزع ريشه .. لعله مليونير ؟ أو ربما يكون وزيراً .. ما أظرفك وأكرمك أيها الصديق العزيز .. قل لى ، ما هى قصتك ، وما الذى أتى بك ؟.. هل هناك من يطلب المساعدة ؟

حاول بيشو أن يجد رباطة جأشه القديمة وهو يقول :

– نعم .. قسيس كريم من ضواحى باريس .

– وقتل من قسيسك الكريم ؟.. أخاً من اخوته ؟

– كلا ، بل على العكس .

– هذا غريب .. انت لاتتحدث اليوم بسهولة يا بيشو .. ليكن .. دعنا من الحديث إذن وامض بى الى حيث يقيم قسيسك الكريم .. ان حقيبتى معدة دائماً اذا ماتعلق الأمر بأن أرافقك .

* * *

تقع قرية فانيل الصغيرة فى جوف وفوق المنحدرات الثلاثة التى تتكون كنيستها القديمة كاطار من الخضرة ، وتمتد بجوار هذه الكنيسة مقبرة ريفية جميلة يحدها يميناً وشمالاً سور مزرعة كبيرة يقع فيها قصر صغير وعلى يساره جدار بيت القسيس .

مضى بيشو بجيم بارنيت الى غرفة الطعام بذلك البيت ، وقدمه للقسيس ديسوك على أنه مخبر سرى لا يعرف لكلمة مستحيل معنى .

والواقع ان القسيس ديسوك كان رجلاً شهماً حلو المظهر ، شديد البدانة ومتورد الوجه ، متوسط السن وكان وجهه الوديع ينم عن كرب كبير لم يخلق له .. ولاحظ جيم بارنيت يديه المنتفختين وكرشه البارز الذى يكاد يشطر ثوبه الكهنوتى نصفين .

– سيدى القسيس ، انا لا أعرف شيئاً من المسألة التى تشغل بالك ، فان صديقى المفتش بيشو لم يقل لى اكثر من انه سبق أن التقى بك من قبل فهل لك الان أن تزودنا ببضعة ايضاحات دون التطويل فى أمور لا فائدة منها .

ولا ريب أن القس ديسول كان قد أعد حديثه منذ وقت طويل لأنه تكلم على الفور فقال بصوت رقيق خافت :

– اعلم يامسيو بارنيت أن خدم هذه الكنيسة هم فى نفس الوقت حراس لكنز ديني ورثته كنيستنا فى القرن الثامن عشر من أصحاب قصر فانيل ، وهو عبارة عن معرضين من الذهب لشعاع القربان المقدس وصليبين وبضعة شمعدانات وخيمتين .. وهناك ، بل يجب أن أقول بكل أسف أنه كانت هناك تسع قطع قيمة كانوا يأتون لرؤيتها من كل حدب وصوب .. ومن ناحيتى انا .

وجفف القسيس ديسول جبينه الذى يتصبب بعرق خفيف واستطرد :

– ومن ناحيتى انا ، أعترف بأن حراسة هذا الكنز كانت تبدو لى محفوفة بالخطر ، وكنت أقوم بتلك الحراسة بكل اهتمام واخلاص ، وفى خوف شديد فى نفس الوقت . ويمكنك أن ترى عبر هذه النافذة صور الكنيسة وغرفة ملابس القداس ذات الجدران السميكة ، حيث توجد الأشياء المقدسة . ولتلك الغرفة باب واحد من خشب البلوط يؤدى الى المحراب ، وانا وحدى معى مفتاحها الضخم ، وانا وحدى معى مفتاح الخزانة التى نحتفظ فيها بالكنز ، وانا أيضاً الذى أتولى مهمة مرافقة الزوار .. وحيث أن نافذة غرفتى لاتبعد عن الكوة المسورة بالقضبان التى تنير غرفة الثياب من أعلى فانتى ركبت ، خفية عن الجميع ، حبلاً فى آخره جرس صغير يوقظنى عند

أقل محاولة لاقتحام الغرفة .. ثم انني ، زيادة في الحرص ، أنقل الى غرفتي كل ليلة أثمن تلك القطع ، وهي تحفة مرصعة بالماس .. ومع ذلك فانني في هذه الليلة .

ومرة أخرى مرر القس ديسول منديله فوق جبينه ، فقد راحت قطرات العرق تزداد كلما تقدم في سرد مأساته المفجعة . وعاد يقول :

– ولكن . في نحو الساعة الواحدة من هذه الليلة لم يوقظني رنين الجرس مذعوراً في وسط الظلام ، وانما أيقظني شئ وقع على الأرض .. وخطر لي ان بعضهم ربما سرق التحفة فصحت :

– من هنا؟

ولم يرد على أحد ، ولكنني كنت واثقا من وجود شخص بجواري ، كما كنت واثقا من أنه وثب من النافذة لأنني أحسست بطراوة الخارج .. أمسكت متحسساً بمصباحي الكهربائي واضأته وانا أرفع ذراعي ، وعندئذ رأيت .. مدة لحظة خاطفة وجهاً مكشراً تحت قبعة رمادية الحواف ، وفوق ياقة بنية مرفوعة .. ولمحت في الوجه المكشر الذي انفرجت شفتاه قليلا ، وبوضوح ، على اليسار ، سنتين ذهبيتين .. وضربني الرجل ضربة شديدة فوق يدي فوقع المصباح .. واندفعت نحوه .. ولكن اين كان ؟ خيل الى أنني درت حول نفسي .. على كل حال اصطدمت برخام المدفأة ، أمام النافذة بالذات وعندما أفلحت في العثور على عيدان الثقاب كانت غرفتي خالية .. ورأيت على حافة النافذة سلماً ، أخذه الرجل من المخزن .. ولم أجد التحفة مكانها كما ان الكنز اختفى .

ولثالث مرة ، جفف القسيس ديسول وجهه .. كان يتصبب عرقاً والقطرات تسيل كالشلالات .. وقال بارنيت :

– وبالطبع اغتصب السارق الكوة وقطع حبل الانذار مما يثبت ان العملية نفذها رجل يعرف المكان كما يعرف عاداتك .. وعلى هذا قمت انت ياسيدي القسيس بمطاردته ؟

– بل انني أخطأت وصحت أقول " الى اللص " لأن رؤسائي لا يحبون الفضيحة ، ويلومونني بسبب الضجة التي أثرتها حول الموضوع .. ولحسن الحظ لم يسمع ندائي غير جاري الوحيد ، وهو البارون دي جراقيير ، الذي يستغل المزرعة ، من الناحية الأخرى من المقبرة ، منذ عشرين سنة .. وقد شاركني رأيي فقال انه يجب أن نحاول الحصول على الأشياء المسروقة قبل اخطار البوليس وتقديم أية شكوى .. وحيث انه يمتلك سيارة فقد رجوته أن يمضي الى باريس وأن يأتي بالمفتش بيشو .

وقال بيشو وقد انتفخت أوداجه من فرط شعوره بأهميته :

– وكنت هنا في الساعة الثامنة . وفي الساعة الحادية عشرة كنت قد فرغت من كل شئ .

صاح بارنيت :

– ايه .. ماذا تقول ؟ .. هل ألقيت القبض على اللص ؟

مد بيشو أصبعه نحو السطح في زهو وقال :

– فوق .. وقد حبسته في مخزن الغلال ، ويقوم البارون دي جراقيير بحراسته .

– عظيم .. هذه ضربة معلم يا بيشو . تكلم وأوجز .

– الأمر في غاية البساطة .. كانت هناك أولا آثار أقدام كثيرة على الأرض المبتلة بين الكنيسة وبيت القسيس .. وثبت من فحصها أنها

لشخص واحد ، نقل الأشياء الثمينة أولا الى مكان بعيد . ثم عاد ايتسلق
بيت القسيس ، وعاد بعد ذلك وحمل عشيقته وهرب عبر الطريق .. واختفت
الآثار على مقربة من حانة فيوليت .

قال بارنيت

– وطبعا استجوبت صاحب الحانة على الفور ؟

واستطرد بيشو :

– وعندما سألت صاحب الحانة عن رجل يلبس قبعة رمادية ومعطفا بنيا وله سنتان ذهبيتان هتف يقول :

– انه مسيو فرتيسون ، البائع المتجول . وهو يأتى هنا فى الرابع من شهر مارس ، فيتوقف بعربته ويتناول غداءه ثم يمضى لزيارة عملائه .

– ومتى عاد ؟

– مع دقات الساعة الثانية صباحاً ، كعادته .

– وهل رحل الآن ؟

– منذ اربعين دقيقة ، فى طريق شانتيللى .

سأله بارنيت :

– وعلى ذلك أسرعت خلفه ؟

– اصطحبنى البارون فى سيارته .. ولحقنا بالسيد فرتيسون ، وأرغمناه على العودة ، رغم احتجاجاته .

قال بارنيت :

– آه .. هو لم يعترف اذن ؟

– بل انه اعترف تقريباً ، فقد قال :

– لا تقولوا شيئا لزوجتى .. لا تذكروا شيئا لزوجتى .

– والكنز ؟

– لم نجد شيئاً فى العربة .

– ومع ذلك فالأدلة دامغة ؟

– تماماً . فأثر حذائه يتفق تماما مع الآثار الموجودة فى المقبرة.. وفوق ذلك فان السيد القسيس يؤكد انه التقى بنفس الرجل فى آخر النهار ، فى المقبرة .. وعلى ذلك ، فليس هناك أدنى شك .

– فيم الخلل اذن ؟ .. لماذا استنجدت بى ؟

قال بيشو فى استياء :

– ذلك بسبب السيد القسيس ، فهناك نقطة ثانوية يختلف فيها معى .

قال القسيس ديسول :

– بل انت الذى تزعم أنها مسألة ثانوية .

سأله بارنيت

– ما الخبر اذن ياسيدى القسيس ؟

أجاب القسيس :

– ذلك بسبب .

– بسبب ماذا ؟

– بسبب السنتين الذهبيتين .. فان المسيو فرتيسون له سنتان، ولكنهما

- ولكنهما ؟

- انهما تقعان فى الناحية اليمنى من وجهه فى حين ان اللذين رأيتهما كانت تقعان فى الناحية اليسرى .

لم يتمالك جيم بارنيت نفسه فانفجر ضاحكاً .. ونظر اليه القسيس ديسول مبهوتا ، فصاح :

- فى الناحية اليمنى من وجهه .. يا لها من كارثة .. ولكن هل انت واثق انك غير مخطئ ؟

- اننى أشهد الله على ذلك .

- ومع ذلك فانت قد التقيت بذلك الرجل ؟

- فى المقبرة .. وهو نفس الرجل .. ولكن لا يمكن أن يكون هو نفس الرجل الذى رأيته ليلاً ، لأن السنتين كانتا على اليسار فى حين ان سنتى مسيو فرنيسون على اليمين .

قال بارنيت وهو لا يتمالك نفسه من الضحك :

- لعله غير مكانهما .. جئنا بهذا الرجل يا بيشو .

وبعد دقيقتين دخل السيد فرنيسون وهو فى حالة يرثى لها ، محنى الظهر مقلوب السحنة ، متهدل الشارب .. كان يرافقه البارون دى جرافيير ، وهو نبيل ريفى ، قوى الجسم ، مربع الكتفين ، يمسك فى يده مسدساً .. وكان مسيو فرنيسون يبدو مشدوهاً ، وراح يتأوه على الفور ويقول :

- اننى لا أفهم شيئا فى مسألتكم هذه .. أشياء ثمينة ، وقفل مغتصب ما معنى هذا ؟

صاح به بيشو :

- أولى بك ان تعترف بدلاً من هذه السخرية .

- اننى أعترف بكل ماتريد ، شريطة ألا تخبروا زوجتى .. كلا .. اننى يجب ان أنضم إليها فى بيتنا بأراس فى الاسبوع المقبل .. يجب أن أكون هناك ، وألا تعرف شيئاً .

كان يهتز من الانفعال والخوف الى حد أنه فغر فمه وبدت فيه السنتان الذهبيتان .. واقترب بارنيت منه وأدخل أصبعين فى فمه ثم قال فى رفق :

- انهما لا تتحركان ، وهما سنتان تقعان فعلا على اليمين فى حين ان السيد القسيس رأى السنتين على اليسار .

قال بيشو فى غضب :

- هذا لا يغير من الأمر شيئا .. ان السارق فى أيدينا ، وهو يأتى الى القرية منذ سنوات لكى يرسم خطته .. انه هو .. وقد أخطأ السيد القسيس

بسط القسيس ذراعيه الى الأمام فى هدوء وقال :

- اننى أشهد الله على ان السنتين كانتا على اليسار .

- بل على اليمين .

- على اليسار .

قال بارنيت :

- لاداعى للجدل .. صفوة القول ، ماذا تريد يا سيدى القسيس ؟

- أريد تفسيراً يطمئننى تماماً .

- وإلا .

- وإلا لجأت الى القضاء ، كما كان الواجب يفرض على ذلك منذ البداية

اذا لم يكن هذا الرجل مذنباً فلا حق لنا فى استجوابه .. واننى أعود فأكرر ان سنتى اللص الذى سرقنى كانتا على اليسار .. صاح بيشو :

- على اليمين .

عاد القسيس يقول فى إصرار :

- بل على اليسار .

قال بارنيت وهو فى غاية الطرب :

- لا على اليمين ولا على اليسار .. سنسلمك الجانى غداً ، فى الساعة التاسعة ، هنا يا سيدى القسيس ، وسيتذكر لك هو بنفسه أين الأشياء الثمينة .. ستقضى الليلة هنا ، على هذا المقعد ، والبارون على ذلك المقعد ، ومسيو فرنيسون فى هذا المقعد الثالث ، موثق اليدين . وسوف توقظنى يا بيشو فى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين ، وأرجو أن يكون الافطار جاهزاً .. خبز مقدد وشيكولاته وبيض برشت و ..

* * *

ورؤى جيم بارنيت فى أصيل ذلك اليوم فى كل مكان .. وهو يفحص المدافن ، قبراً قبراً ويفحص غرفة القسيس ، ورؤى فى مصلحة البريد حيث تكلم فى التليفون ، ورؤى فى حانة هيبوليت حيث تناول العشاء مع صاحب الحانة ، ورؤى فى الطريق وفى الحقول .

ولم يعد إلا فى الساعة الثانية صباحاً .. وكان البارون والمفتش بيشو يغطان فى النوم ، وهما يضغطان بينهما الرجل ذا السنتين الذهبيتين .. وما أن سمع مسيو فرنيسون بارنيت حتى راح يتأوه ويقول ، لا تخبروا زوجتى .

وارتمى جيم بارنيت على الأرض وراح فى النوم على الفور .

أيقظه بيشو فى الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين .. وكان طعام الافطار جاهزاً وازدرد بارنيت أربع قطع من التوست ، والشيكولاته ، والبيض ، ثم جمع مستمعيه حوله وقال :

- سيدى القسيس .. اننى أفى بالوعد الذى قطعته على نفسى بالامس ، وفى الساعة التى حددتها .. وسأريك انت يا بيشو كيف أن كل الخدع المهنية كالبصمات وأعقاب السجائر والتفاهات الأخرى لا وزن لها تقريباً أمام المعلومات العاجلة لعقل سليم تسانده البديهة .. وسأبدأ بمسيو فرنيسون .

غمغم مسيو فرنيسون وقد بدا يعانى من الأرق والقلق :

- لك أن ترمينى بكل الموبقات شريطة ألا تخبر زوجتى .

قال جيم بارنيت :

- منذ ثمانية عشر عاماً التقى مسيو فرنيسون ، وكان يعمل سمساراً لإحدى الشركات ، هنا فى نافيل بالآنسة أنجليك الخياطة .. وكان حباً من أول نظرة لكلا الجانبين .. وحصل على بضعة أسابيع غازل فيها الآنسة أنجليك وغزا قلبها .. وقد أحبته هى الأخرى كل الحب ، وأسعدته ، وماتت بعد سنتين من ذلك .. ولم يسلوها مسيو فرنيسون ، ورغم انه استسلم بعد ذلك لاغراء الآنسة هونورين وتزوجها إلا ان ذكرى الآنسة انجليك بقيت حية فى ذهنه .. ولما كانت الآنسة هونورين شرسة جداً وشديدة الغيرة فانها لم تكف أبداً عن لومه على تلك الصلة التى كشفتها لها الصدفة .. أليس كذلك يا مسيو فرنيسون ؟

أجاب هذا الأخير :

كل ما تريد شريطة أن .

واستطرد جيم بارنيت يقول :

– وعلى ذلك دبر مسيو فرنيسون أمره لكى يقدم بعربته الى فانيل من غير أن تعلم زوجته بذلك ، ويجثو عند قبر انجليك فى تكرى وفاتها من كل سنة ، فى اليوم الرابع من شهر مارس .. ويزور الأماكن التى عاشا فيها فى يوم لقائهما ولا يعود الى الحانة إلا فى الساعة التى عاد فيها فى ذلك اليوم .

ونحن نفهم الآن لماذا يخشى مسيو فرنيسون أن تعرف زوجته أن زوجها غير الوفى متهم بالسرقة بسبب حبيبته الراحلة .

كان مسيو فرنيسون يبكى ، ويبكى مسبقا ، وهو يتصور انتقام مدام فرنيسون .. كان هذا وحده سبباً كافياً بالطبع بالنسبة له ، اما ماعدا ذلك فلم يكن يحفل به .. وراح بيشو والبارون دى جرافيير والقسيس ديسول يصغون فى اهتمام زائد ، واستأنف بارنيت قصته فقال :

– عرفنا الآن أحد الأسباب لقدوم مسيو فرنيسون الى فانيل بانتظام ، وهذا السبب يقودنا رأساً الى أن نجلو سر الكنز ، فالعلاقة بين هاتين القطتين وثيقة ، ولا ريب أن من المسلم به أن كنزا بهذه الضخامة لابد من أن يثير الخيال والأطماع ، ولابد من أن تنبثق فكرة السرقة فى اذهان الكثيرين من الزوار أو من أهالى البلد .. وهى سرقة صعبة التنفيذ بسبب الاحتياطات التى اتخذها السيد القسيس .. ولكنها ليست صعبة لمن يعرف تلك الاحتياطات ويدرس المكان منذ سنوات ويرسم خطة لتبعده عن خطر الاتهام ، فهنا كل المسألة .. وهو ألا يتعرض لأدنى اتهام .. وخير وسيلة لذلك هى أن يعمل على توجيه الاتهام الى شخص آخر .. إلى ذلك الرجل الذى يأتى خلسة الى المدافن فى يوم محدد ، ويختفى ، وعندئذ يدبر صاحبنا خطته فى صبر وأناة .. قبعة رمادية ومعطف بنى وبصمات حذاء

وسنتان ذهبيتان ، ويرسم خطته بكل اتقان بحيث تقع التهمة على ذلك الغريب وليس على السارق الحقيقى ، وأعنى به ذلك الذى يدبر ويتابع خطته فى ظل الكنيسة ، سنة بعد سنة .

لزم بارنيت الصمت لحظة . بدا شئ من الحقيقة يظهر واتخذ مسيو فرنيسون سمة الضحية .. ومد بارنيت يده وقال :

– لن تشتبه مدام فرنيسون فى سبب قدومك الى هذه البلد يا مسيو فرنيسون .. وأرجو ألا تغضب بسبب الخطأ الذى وقع منذ يومين ، وأن تلتمس لى العذر اذا كنت قد فتشت عربتك الليلة ، واكتشفت فى المخبأ السرى بخزانتك رسائل الآنسة انجليك واعترافاتك الخاصة .. وانت حر فى الانصراف الآن يا مسيو فرنيسون .

نهض مسيو فرنيسون ، ولكن بيشو صاح فى استياء :

– لحظة واحدة .

– تكلم يا بيشو .

صاح المفتش :

– والسنتان الذهبيتان ؟ لانه لا يجب أن يغيب عن أذهاننا أن السيد القسيس رأى بعينيه سنتين ذهبيتين فى فم اللص .. ومسيو فرنيسون له سنتان ذهبيتان ، هنا ، فى الجهة اليمنى من وجهه .

قال القسيس مصححاً :

– ولكن السنتين اللتين رأيتهما كانتا فى الجهة اليسرى من الوجه .

– أو لعلهما كانتا فى الجهة اليمنى يا سيدى القسيس .

– بل فى الجهة اليسرى .

راح جيم بارنيت يضحك من جديد وقال :

– ارجوكما ان تلزما الصمت .. انكما تتجادلان فى أمر تافه . كيف يمكن ايها المفتش بيشو أن تتملكك الحيرة أمام مسألة صغيرة كهذه ؟.. ولكنها مسألة من أسهل المسائل .. مسألة لا يعجز عنها عقل تلميذ صغير .

أعتقد يا سيدى القسيس ان هذه الغرفة صورة مطابقة تماماً لغرفتك أليس كذلك ؟

– هذا صحيح . وغرفتى فى الطابق العلوى .

– اغلق النوافذ ياسيدى القسيس وأسدل الستائر .. مسيو فرنتيسون أعرنى قبعتك ومعطفك .

لبس بارنيت القبعة ذات الحواف الرخوة والمعطف البنى اللون ذا الياقة المرفوعة ، وعندما ساد الظلام فى الغرفة تماماً أخرج من جيبه مصباحاً كهربائياً وصوب شعاع المصباح على فمه المفتوح فصاح القسيس وهو ينظر اليه :

– الرجل .. الرجل ذو السنتين الذهبيتين .

– فى اى جهة من وجهى هاتان السنتان يا سيدى القسيس ؟

– فى الجهة اليمنى .. والسنتان اللتان رأيتهما كانتا فى الجهة اليسرى .

أطفأ جيم بارنيت مصباحه ، وامسك بالقسيس من كتفيه وجعله يلف حول نفسه مراراً كثيرة ، كالنحلة ، ثم ، أضاء مصباحه فجأة وهو يسأله بلهجة الأمر :

– انظر أمامك الآن .. أمامك تماماً .. في اية جهة ترى السنتين

الذهبيتين ؟

أجاب القسيس مشدوها :

– فى الجهة اليسرى .

رفع جيم بارنيت الستائر وفتح النوافذ وقال :

– فى الجهة اليمنى .. أو فى الجهة اليسرى .. انت غير متأكد . حسناً يا سيدى القس .. هذا ماحدث فى الليلة الماضية . عندما نهضت مذعوراً وذهنك مرتبك لم تدر انك تولى ظهرك للنافذة وانك كنت أمام المدفأة ، وان السارق لم يكن واقفاً أمامك وانما بجوارك ، وأنك عندما أضأت المصباح لم تعكس نوره عليه وانما علي صورته المعكوسة فى المرآة .. وهذه هى نفس الظاهرة التى أحدثتها أنا بعد أن جعلتك تلف حول نفسك مراراً .. هل فهمت الآن .. وهل يجب أن أنبهك ان المرآة حين تعكس لك صورة تبين لك تلك الصورة على اليمين اذا كانت على اليسار ، وعلى اليسار اذا كانت على اليمين .. ومن ذلك يظهر لك أنك رأيت السنتين جهة اليسار بدلاً من جهة اليمين .

صاح المفتش بيشو مزهواً :

– نعم .. ولكن هذا لا يمنع من اننى إذا كنت على حق فان السيد القسيس لم يكن مخطئاً حين أكد انه رأى سنتين ذهبيتين ، ولهذا يتعين عليك أن تقدم لنا شخصاً له سنتان ذهبيتان بدلاً من مسيو فرنتيسون .

– لا داعى لذلك .

– ولكن السارق كانت له سنتان ذهبيتان .

قال بارنيت :

- ولى انا سنتان ذهبيتان أيضا .

وأخرج من فمه قطعة من الورق المذهب لا تزال تحتفظ بشكل سنتين ذهبيتين .

- آه . هذا هو الدليل ، وهو دليل مقنع ، أليس كذلك ؟ .. بصمات الحذاء والمعطف البنى وسنتين ذهبيتين تصطنع صورة لا تقبل الجدل من مسيو فرنيسون .. وما أسهل ذلك .. يكفى الحصول على قطعة من الورق المذهب ، كهذه ، وقد أتيت بها من نفس المحل بفانيل الذى اشترى منه البارون دى جرافيير قطعة من الورق المذهب منذ ثلاثة شهور .

نطق بارنيت بالعبارة الأخيرة فى اهمال ، ولكن كان لها صدى بدد الصمت بطريقة غريبة .. ولكن الواقع أن بيشو ، وقد قادته حجة بارنيت شيئاً فشيئاً نحو الهدف لم يندهش أبداً .. غير ان القسيس بدا كأنه يكاد يختنق ، وراح ينظر الى النبيل خلسة .. ولزم البارون دى جرافيير الصمت وقد اصطبغ وجهه من فرط الخجل .

وأعاد بارنيت القبعة والمعطف لمسيو فرنيسون ، وانصرف هذا الأخير وهو يتمتم :

- هل تؤكد لى ان مدام فرنيسون لن تعرف شيئا ؟ .. انه ليكون أمراً فظيعاً لو أنها عرفت .

وشيعه بارنيت حتى الخارج ثم عاد وهو يفرك يديه جذلاً وقال :

- عمل رائع أنجزته بسرعة ، وأشعر بشئ من الزهو .. أرأيت كيف يكون التحقيق يا بيشو ؟ دائما نفس الطريقة التى اتبعتها فى القضايا الأخرى التى انجزناها معا .. اننى لم أبدأ باتهام ذلك الذى نشتبه فيه ، ولم أسأله

أى تفسير أو أى إيضاح .. بل اننى لم أهتم به .. ولكننى قمت بدون أن يشعر بكل الحركات التى قام بها فى هذه المغامرة ، وجعلته يستعيد فى ذهنه كل ما أقدم عليه ويرى شيئاً فشيئاً ، ومذعوراً وهلوعاً كل ما كان يعتقد أنه أصبح فى الخفاء ، وأن ليس هناك من يعرف عنه شيئا ، ويشعر بأنه وقع فى الفخ وأن لا منجاة منه ، واننى جمعت ضده كل الأدلة الدامغة ، بحيث يصبح متوتر الأعصاب ، ولا يفكر فى الدفاع عن نفسه أو فى الاحتجاج . أليس كذلك يا سيدى البارون ؟ ثم اننى لست بحاجة الى أن اكشف لك أدلتى لأننى أعتقد أن ما ذكرته لك فيه الكفاية .

ولا ريب أن البارون دى جرافيير كان يعانى من نفس المشاعر التى وصفها بارنيت لأنه لم يحاول المقاومة أو اخفاء ما يشعر به من احباط . وما كانت هيئته لتختلف لو أنه القى عليه القبض متلبساً بجريمته .

واقترب بارنيت منه ، وطمأنه فى رفق كبير :

- على أنه ليس هناك ما تخشاه ياسيدى البارون ، فان القسيس ديسول لا يريد شيئا اكثر من تجنب الفضيحة ، ويطلب منك بكل بساطة أن تعيد إليه الأشياء الثمينة ، وبذلك لن تتعرض لأى اتهام .

رفع البارون رأسه وتأمل خصمه المخيف لحظة ثم تمتم وهو تحت تأثير نظرة بارنيت الصارمة :

- ألن اتعرض لأى اتهام حقاً ؟ .. ألن يتكلم أحد عن ذلك ؟ هل يتعهد السيد القسيس بذلك ؟

قال القسيس ديسول :

- لن أذكر شيئاً .. أعدك بذلك سأنسى كل شئ بمجرد أن يعود الكنز

مكانه .. ولكن هل هذا ممكن ياسيدى البارون ؟ أنت ؟ .. انت الذى ارتكب مثل هذا الجرم ؟ .. انت الذى وضعت فيك كل ثقتى .. أحد ابناء رعيتى المخلصين !

همس البارون دى جرافيير فى مذلة كطفل يعترف بذنب مخففاً جرمه :

– كان هذا أقوى منى ياسيدى القسيس .. كنت أفكر طوال الوقت فى ذلك الكنز الموجود فى متناول يدى .. وكنت أقاوم .. لم اكن أريد .. ثم دبرت الأمر رغماً عنى :

عاد القسيس يقول فى صوت حزين :

– أهذا ممكن ؟ .. أهذا ممكن ؟ .

– نعم .. فقد خسرت أموالى فى المضاربات فكيف أعيش؟.. ومنذ شهرين جمعت فى المخزن كل قطع الأثاث الأثرية القديمة .. ساعات ثمينة وسجاجيد .. كنت أريد بيعها ، وبذلك أنجو من الفقر .. ولكن قلبى كان يتفتت ، ثم اقترب اليوم الرابع من مارس .. وكان الاغراء قوياً عندئذ ، وهو أن أقوم بالضربة كما خططت لها .. واستسلمت للاغراء فاغفر لى .

قال القسيس ديسول :

– اننى أغفر لك ، وسأصلى لكيلا يقسو الله فى عقابك .

نهض البارون وقال فى لهجة حاسمة :

– هلموا بنا .. أرجو ان تتبعونى .

ومضوا عبر الطريق الطويل كأناس يتنزهون .. وكان القسيس ديسول يجفف وجهه من العرق ، والبارون يمشى فى خطوات ثقيلة محنى الظهر ، وبيشو يعصف به القلق فلم يشك لحظة واحدة فى أن بارنيت ، وقد كشف

الحقيقة بتلك البراعة لم يبادر باختلاس الأشياء الثمينة .

وكان جيم بارنيت يمشى بجواره وهو يقول فى ارتياح تام :

– كيف لم تكتشف الحقيقة بحق الشيطان ؟ انك أعمى يابيشو .. أما إنا فقد أدركت على الفور أن مسيو فرنيسون لم يستطع أن يقوم بذلك العمل نظرا لأنه كان يأتى مرة كل سنة ، وان مرتكب السرقة لابد أن يكون من الأهالى ، وأنه من الجيران المقربين .. ومن غير البارون الذى يقع قصره أمام الكنيسة بالذات، ويعرف فوق ذلك كل الاحتياطات التى اتخذها القسيس ديسول ، وكل الرحلات التى يقوم بها مسيو فرنيسون فى نفس الوقت . وعندئذ ..

لم يكن بيشو يصغى إليه ، لأنه كان غارقاً فى مخاوفه التى راحت تزداد شيئاً فشيئاً .. وداعبه برنيت قائلا :

– وعندئذ ، تأكدت من الأمر ، ورميته باتهامى دون أن يكون لدى أى دليل ولكننى رأيته يصفر ويمتقع وهو يصغى إلى .. ولم يستطع أن يتماسك نفسه . اوبا بيشو ! اننى لم أستمتع فى حياتى كما استمتعت عندئذ .. وها انت ترى النتيجة يا بيشو .

قال هذا الأخير وهو يتوقع المفاجأة :

– نعم ، اننى أراها .. بل سأراها .

وكان البارون دى جرافيير دار بقصره ، وسار فى طريق معشوشب ، وبعد ثلاثمائة متر ، بعد غابة من أشجار البلوط ، توقف وقال فى ارتباك :

– هنا .. وسط هذا الحقل .. فى الطاحونة .

زفر بيشو زفرة مريرة ، ولكنه اندفع مع ذلك ، فى سرعة الفراغ من الأمر

وتبعه الآخرون .

وكانت الطاحونة ضيقة ، وفرغ من تفتيشها فى دقيقة واحدة فرفع أكوام التبن ، وأطلق فجأة صيحة انتصار وقال :

– ها هو الكنز .. معرض القربان المقدس ، ومشعل وشمعدانات .. ستة أشياء .. بل سبعة .

وصاح القسيس :

– يجب أن تكون تسعة .

– تسعة ؟ .. نعم .. كلها موجودة .. مرحى يابارنيت .. هذا جميل حقاً . آه .. يا لهذا البارنيت !

وكاد القسيس ينهار من فرط الفرح ، وراح يضم الأشياء الى صدره وهو يتمتم :

– انى أشكرك كثيرا يا مسيو بارنيت . سيجازيك الله خير الجزاء .

* * *

لم يخطئ المفتش بيشو مع ذلك عندما توقع مفاجأة . وكل ما هناك انها وقعت بعد ذلك بقليل .

ففى أثناء العودة ، وبينما كان البارون دى جرافيير ورفاقه يقتربون من القصر سمعوا صياحاً صادراً من الحديقة .. وأسرع البارون نحو المخزن ، وكان يقف أمامه ثلاثة من الخدم ووصيف وهم يأتون بحركات كثيرة .

وخمن البارون طبيعة الكارثة على الفور ، وتحقق من مداها .. فقد كانت هناك غرفة صغيرة ملحقة بالمخزن اغتصب بابها واختفت كل قطع الأثاث

الأثرية والساعات والسجاجيد التى كانت بها والتى تمثل آخر موارده .

وتمتم وهو يتلعثم :

– ولكن هذا فظيع ! .. متى سرقوا كل ذلك ؟

قال أحد الخدم :

– هذه الليلة .. فى نحو الساعة الحادية عشرة مساء ، نبحت الكلاب .

– ولكن كيف استطاعوا ؟ ..

– بسيارة سيدى البارون .

– بسيارتى ؟ .. هل سرقت هى الأخرى ؟

وتهالك البارون مصعوقاً بين ذراعى القسيس الذى واساه وهو يقول فى رفق :

– لم يتأخر القصاص يا صديقى المسكين ! .. فتقبله نادماً .

وشد بيشو الضغط على قبضتيه وسار نحو جيم بارنيت ، خطوة خطوة ، وقد تجمع حول نفسه على استعداد لكى ينقض ، وقال محنقاً :

– قدم شكوى ياسيدى البارون ، وانا أضمن لك ان مفروشاتك لن تضيع

قال بارنيت وهو يبتسم فى رفق :

– انها لم تضع طبعاً .. ولكن تقديم شكوى فيه خطر شديد للسيد البارون .

راح بيشو يتقدم نحوه أكثر فأكثر مهدداً .. ولكن بارنيت أسرع وشده اليه وهو يقول :

– هل تعرف ماذا كان يمكن أن يحدث من غيرى ؟ .. ما كان السيد

القسيس بجد كثوره ، ولكان فرنيسون البرئ خلف القضبان الآن ، ولعرفت مدام فرنيسون بالسر الذى يكتمه زوجها عنها .. صفوة القول ، لم يكن أمامك عندئذ إلا أن تنتحر .

تهالك بيشو فوق جذع شجرة وهو يكاد يختنق من فرط الغضب ، فصاح بارنيت :

- أسرع ياسيدى القسيس .. مشروب منعش .. فهو ليس على ما يرام .

أصدر البارون دى جراقيير أوامره . وجئ بزجاجة من النبيذ المعتق ، جرع بيشو منها كأساً ، والقسيس كأساً هو الآخر . وافرغ البارون بقيتها فى جوفه .

***

٥ سندات بيشو الأثنى عشر

كان أول شئ أهتم به مسيو جاسير عند صحوه أنه تحقق من وجود ربطة السندات التى أحضرها معه بالأمس ، على الطاولة بجوار الفراش ، حيث وضعها .. وإذ اطمأن ، مضى الى دورة المياه .

كان نيكولا جاسير رجلاً طويل القامة بدين الجسم ، ضامر الوجه يمارس فى حى الانفاليد مهنة رجال الأعمال ، ويجمع حوله زمرة هامة من العملاء الذين يعهدون إليه بمدخراتهم ، ويقدم لهم أرباحاً طيبة بفضل مضارباته فى البورصة ، وبعض الأعمال الربوية المستترة .

كان يقطن فى شقة بالطابق الأول من بيت عتيق يملكه ، وتتكون من صالة وغرفة وحجرة طعام واستشارة فى نفس الوقت يعمل فيها ثلاثة من الموظفين ، وتفضى فى آخرها الى المطبخ .

كان رجلاً مقتصداً جداً ، فلم يلجأ الى خادمة ما وانما كانت البوابة تأتيه فى الساعة الثامنة من كل صباح برسائله ، وهى امرأة بدينة ومرحة ، وتقوم بشئون بيته ، وتضع كل صباح ، على مكتبه فنجاناً من القهوة وبعض البسكويت .

وفى ذلك الصباح انصرفت فى الثامنة والنصف .. وتناول مسيو جاسير طعامه فى هدوء فى انتظار موظفيه ، وفض رسائله ، وتصفح جريدته وفجأة

وفى التاسعة إلا خمس دقائق بالتدقيق خيل اليه أنه يسمع حركة فى غرفته . وتذكر ربطة السندات التى تركها فيها فانطلق مسرعاً .. لم تكن الربطة موجودة .. وانصفق باب الصالة فى نفس الوقت ، فى عنف ، وأراد ان يفتحه ولكن الباب كان من تلك الأبواب التى لا يمكن فتحها إلا بالمفتاح . وكان قد ترك المفتاح على المكتب ، وقال يحدث نفسه .

– لو ذهبت لكى آتى به فان السارق سيتمكن من الهرب من غير أن أراه .

وعلى ذلك فتح مسيو جاسير نافذة الصالة التى تطل على الشارع .. وفى تلك اللحظة ، كان من المستحيل تماماً أن يجد اى احد متسعاً من الوقت لمغادرة البيت .. والواقع ان الشارع كان مقفراً .. ورغم ارتياعه لم يصرخ لطلب النجدة .. ولكن ، بعد لحظات رأى موظفه الرئيس يأتى من الشارع المجاور ، فى طريقه الى البيت فأشار اليه وقال له وهو ينحنى :

– أسرع .. أسرع يا سارونا .. اغلق الباب ولا تدع أحدا يخرج ، فقد سرقت .

وما ان نفذ الموظف الأمر الذى صدر إليه حتى هبط مسيو جاسير وهو يلهث ، وفى حالة شديدة من الاضطراب .

– حسنا يا سارونا .. ألم يخرج أحد ؟

– كلا يا مسيو جاسير .

وأسرع الى غرفة البوابة ، وتقع بين السلم وحوش مظلم ، وكانت تكنس . وصاح :

– سرقونى يا مدام الان .. ألم يختبئ أحد عندك ؟

المرأة البدينة مشدوهة :

– كلا يا مسيو جاسير .

– اين تضعين مفتاح مسكنى ؟

– هنا يا مسيو جاسير ، خلف الساعة .. ولكن لم يستطع أى أحد أن يأخذه ، لأننى لم أنتقل من غرفتى منذ نصف ساعة .

– إذن فقد صعد اللص السلم بدلاً من أن يهبط .هذا فظيع .

وعاد مسيو جاسير الى باب البيت .. كان الموظفان الآخران قادمين . وأسرع فأصدر إليهما تعليماته لا يجب ان يدخل أحد أو أن يخرج حتى عودته ، وقال :

– هل فهمت يا سارونا ؟

وأسرع فارتقى السلم .. ودخل مسكنه .. وقال وهو يمسك سماعة التليفون :

– ألو .. ادارة الأمن .. ولكننى لم أطلب منك ادارة الأمن يا آنسة .. اننى اطلب مقهى إدارة الأمن .. الرقم ؟ .. لا أعرفه .. اسرعى .. اسألى الاستعلامات .. اسرعى يا آنسة .

وافلح أخيراً فى الاتصال بصاحب المقهى وقال له :

– هل المفتش بيشو موجود ؟ دعه يحدثنى .. حالاً ، أسرع . انه أحد عملائى . .لا يجب ان تضيع دقيقة واحدة .. آلو ؟ .. المفتش بيشو ؟ .. مسيو جاسير يتكلم .. نعم يا بيشو ، صحتى على ما يرام .. أو على الأصح كلا .. سرقوا ربطة السندات .. انا فى انتظارك .. ايه ؟ ماذا ؟.. مستحيل ؟ سترحل فى أجازة ؟ ولكننى لا أحفل بأجازتك .. اسرع بالمجئ يابيشو ..

ان مستنداتك الاثنى عشر للمناجم الافريقية بين السندات التى سرقت .

* * *

سمع مسيو جاسبير فى آخر لحظة كلمة "باللشيطان" فاطمأن كل الاطمئنان وأدرك أن المفتش بيشو سيسارع بالقدوم .. وفعلاً ، أقبل بيشو بعد خمس عشرة دقيقة وقد انقلبت سحنته ، وانقض على رجل الأعمال قائلاً :

– سنداتى الاثنا عشر .. كل مدخراتى .. اين هى ؟

– سرقت ومعها سندات عملائى ، ومعها كل سنداتى انا الآخر .

– سرقت ؟

– نعم .. من غرفتى ، منذ نصف ساعة .

– يا للشيطان ! ولكن ماذا كانت مستنداتى تفعل فى غرفتك ؟

– سحبتها أمس من الكريدى ليونيه لكى أعهد بها الى أحد المصارف الأخرى ، فقد رأيت ذلك أدعى الى الاطمئنان ، ولكننى اخطأت .

ألقى بيشو يدا من حديد على كتفه وقال :

– انت المسئول ياجاسبير .. سوف تسدد لى ثمنها .

– من أين ؟ .. اننى أفلست .

– أفلست ؟ .. وهذا البيت ؟

– مرهون .

وراح الرجلان يثبان ويصرخان ، الواحد أمام الآخر .. وفقدت البوابة والموظفون الثلاثة عقولهم هم الآخرون .. وسد الطريق أمام فتاتين ، يقطنان فى الطابق الثالث ، أرادا الخروج من البيت .

وصاح بيشو وهو خارج عن طوره :

– لن يخرج أحد قبل أن نعثر على سنداتى الاثنى عشر .

اقترح جاسبير :

ربما نحتاج الى مساعدة .. هناك الجزار والبدال ، وهما رجلان يوحيان بالثقة .. قال بيشو :

لا أريد أحدا منهما .. اذا كان ولابد من مساعد فسأتصل تليفونياً بمكتب بارنتيت بشارع لابورد ، ثم نقدم شكوى .. ولكن ذلك سيكون وقتاً ضائعاً .. لابد من العمل على الفور .

وحاول أن يتماسك ، وأن يبدو هادئاً كما يجب أن يكون مفتش البوليس ، ولكن حركاته العصبية وتوتر فمه فضحا اضطرابه الشديد .. وقال يخاطب جاسبير :

– تشجع .. لم يضع كل شئ بعد ، فلم يخرج أحد ، ولابد إذن من أن نعثر على مستنداتى الاثنى عشر قبل أن تخرج من البيت .. هذا هو المهم .

واستجوب الفتاتين ، وإحداهما تعمل على الآلة الكاتبة وتنسخ فى بيتها بعض النشرات والتقارير ، أما الأخرى فتعطى دروساً فى العزف على الناى فى بيتها هى الأخرى .. وكانت كل منهما تريد أن تخرج لشراء لوازمها لأجل الغداء .. وقال بيشو فى صرامة .

– آسف .. ولكن سيبقى باب البيت هذا الصباح مقفلاً .. ليحرسه رجلان من رجالك يا مسيو جاسبير .. أما الثالث فسيقوم بشراء لوازم السكان ، وستطيع هؤلاء الخروج بعد الظهر ، ولكن بتصريح منى .. وسنقوم بتفتيش كل طرد وكل ربطة وكل سلة تفتيشاً دقيقاً .. هذه هى الأوامر ياسيد جاسبير

أما نحن ، فالى العمل ، وسوف ترشدنا البوابة .

فقد سهل وضع المنزل عملية البحث .. ثلاثة طوابق ، فى كل طابق مسكن واحد أى اربعة طوابق بالطابق الأرضى ، ولم يكن مسكوناً فى ذلك الوقت ويقيم بالطابق الثانى مسيو توفيمون ، وهو نائب ووزير سابق .. وفى الطابق الثانى وكان مقسماً الى قسمين ، تقيم فى قسم منه الآنسة ليجوفييه الكاتبة على الآلة الكاتبة ، وفى القسم الثانى الآنسة هافيلان ، مدرسة الناى .

كان مسيو توفيمون النائب قد خرج فى الساعة الثامنة والنصف من صباح ذلك اليوم ، ومضى الى المجلس حيث كان يرأس إحدى اللجان .. ولم تكن الشغالة التى تقوم بشئون بيته تأتى إلا فى الظهر .. اثناء الغداء ، وانتظروا عودته .. ولكن تعرض مسكنا الآنستين لتفتيش دقيق ، ثم فحصوا جميع أركان السطح ، ثم الحوش فمسكن مسيو نيكولا جاسير نفسه .

ولم يهتدوا الى شئ ، وراح بيشو يفكر فى سنداته الاثنى عشر فى مرارة

* * *

أقبل مسيو توفيمون النائب نحو الظهر ، وهو رجل وقور ، وفى يده حافظته .. وكان معروفاً عنه أنه رجل نشيط ومجتهد ، تحترمه كل الاحزاب ، وكانت استجواباته فى المجلس نادرة ولكنها قاطعة تثير بلبلة الحكومات . مضى بخطوات ثابتة وأخذ رسائله من البوابة ، وهناك لحق به جاسير ، وأخبره بالسرقة التى راح ضحية لها .

أصغى النائب توفيمون إليه فى اهتمام شديد .. ووعده بمساعدته اذا ما فكر فى تقديم شكوى ، وأصر على أن يقوم بيشو بتفتيش مسكنه قائلاً :

- من يدرى ، لعل أحدهم دخل بمفتاح مصطنع .

ولم يسفر التفتيش عن شئ .. وبدأت القضية تتخذ مساراً سيئاً .. وراح كل من الرجلين يواسى الآخر بعبارات مشجعة بدت متكلفة بعض الشئ .

وقررا أن يتناولا الطعام فى مقهى صغير يقع أمام البيت بحيث لم يغب عن ناظريهما .. ولكن بيشو لم يكن جائعاً ، فقد كانت سندات الاثنا عشر تثقل على معدته .. واشتكى جاسير من نورا ، وأعاد كل منهما السؤال على الآخر على أمل اكتشاف أى شئ .

قال بيشو :

- الأمر بسيط جداً .. دخل بعضهم مسكنك وسرق السندات ، وحيث أنه لم يستطع الخروج فذلك معناه انه لا يزال بالبيت .

وافقه جاسير قائلاً :

- طبعاً .

- واذا كان لايزال فى البيت فمعنى ذلك ان سنداتى الاثنى عشر موجودة به هى الأخرى .. ان السندات الاثنى عشر لا يمكن ان تمر من خلال الجدران والأسقف .

قال نيكولا :

- بل ان الربطة كلها لا يمكن أن تختفى هكذا .

واستطرد بيشو :

- ونصل اذن الى الحقيقة الثابتة التى تستند على.

ولم يفرغ من عبارته ، فقد ارتسم فى عينيه ذعر مفاجئ ، كان ينظر الى الناحية الأخرى من الشارع حيث هناك كان رجل يتقدم نحو البيت فى

خطوات مرحة ، وتمتم :

– بارنيت ؟ .. ولكن من الذى أخبره ؟

واعترف جاسبير فى شئ من الارتباك :

– انك حدثتني عنه وعن مكتب بارنيت بشارع لابورد .. وقد خطر لى ، فى هذه الظروف القاسية ان مكالمة تليفونية قد تكون مجدية .

غمغم بيشو :

– ولكن هذه حماقة .. من الذي يدير التحقيق ؟ .. انا أم انت ؟ لا دخل لبارنيت فى هذه المسألة .. انه رجل دخيل ، يجب توخى الحذر منه .. آه . كلا .. لا أريد بارنيت .

بدت له مساعدة بارنيت فجأة اكثر الأشياء خطورة فى العالم . جيم بارنيت فى البيت .. جيم بارنيت مشترك فى هذه القضية .. كان معنى ذلك على كل حال نهاية التحقيق واختفاء السندات وعلى الخصوص سنداته الاثنى عشر .

اجتاز الشارع وهو يغلى من الغضب .. واذ هم بارنيت بأن يطرق الباب ، وقف أمامه وقال فى صوت خافت ومتهدج :

– انصرف .. لا حاجة لنا بك .. انك استدعيت خطأ ، فانصرف حالاً ودعنا فى سلام .

نظر بارنيت إليه فى دهشة وقال :

– أيها العزيز بيشو ! .. ماذا بك ؟ .. يبدو أنك على غير مايرام .

– عد من حيث أتيت .

– إذن فالأمر جد خطير ، كما قيل لى فى التليفون . سرقوا مدخراتك ! اذن فانت لا تريد مساعدة صغيرة ؟

قال بيشو متذمراً :

– انصرف .. اننا نعرف معنى مساعدتك الصغيرة .. ان مساعدتك هذه معناها الاغتراف من جيوب الغير .

– هل انت خائف على سنداتك ؟

– نعم ، اذا انت تدخلت .

– لا داعى للكلام اذن .. لك أن تدبر أمرك .

– هل تنصرف ؟

– أبداً .. إن لى عملاً فى البيت .

وكان جاسبير قد اقترب منهما وفتح الباب ، فقال له :

– عفواً ياسيدى . أهنا تقيم الآنسة هافيلان ، مدرسة الناى . الحائزة على جائزة معهد الموسيقى .

احتد بيشو وقال :

– نعم .. انك تسأل عنها لأنك ترى عنوانها على اللافتة .

قال بارنيت :

– وبعد ؟ .. أليس لى الحق فى أن آخذ دروساً فى العزف على الناى ؟

– ليس هنا .

– انني آسف . ولكنني مغرم بالعزف على الناى .

- انني أعترض كل الاعتراض .

- لا شأن لي باعتراضك .

وراه بيشو وهو في غاية الفلق يصعد السلم .. دون أن يجرؤ أحد على اعتراضه .. وبعد عشر دقائق كان قد عقد الاتفاق مع الآنسة مافيلان ، فقد تناهى من الطابق الثالث صوت العزف على الناى .. وتمتم بيشو وقد ازداد قلقه على سنداته الاثنى عشر :

- يالوغد .. أين نمضى مع هذا الحيوان .

واستأنف العمل في غضب شديد وقاموا بتفتيش الطابق الأرضى غير المسكون ، وكذلك غرفة البواب ، حيث كان من الممكن ، عند الضرورة ، التخلص من رزمة السندات .. ولكن جهودهم ضاعت سدى ومع ذلك فقد استمر العزف على الناى في الطابق العلوى ، وكان عزفاً أثار أعصاب بيشو وبلبل أفكاره وأخيراً ، وفى نحو الساعة السادسة ، ظهر بارنيت وفى يده علبة كبيرة من الكرتون .. علبة ! .. وأطلق بيشو صيحة سخط وأمسك بالعلبة وانتزع غطاءها .. كان بداخلها قبعات قديمة وفرو اكلته العتة .. وقال بارنيت بلهجة الجد :

- حيث ان الآنسه مافيلان لا حق لها في الخروج ، فقد طلبت منى أن ألقى بكل هذا في صندوق القمامة .. ان الآنسة مافيلان جميلة جداً كما تعلم ، وهى بارعة في العزف على الناى ، وتزعم ان عندى استعداداً عجيباً ، وانني إذا واصلت التدريب فقد أستطيع أن أقف على باب إحدى الكنائس وأتسول بواسطة العزف على الناى .

* * *

بقى جاسبير وبيشو يقومان بالحراسة طوال اليوم ، أحدهما بالداخل والآخر في الخارج ، حتى لا يتمكن أحد من إلقاء ربطة السندات من النافذة الى شريك له .. واستأنفا العمل في صباح اليوم التالى ، ولكن دون اى تقدم فان السندات الاثنى عشر الخاصة بأحدهما والسندات الباقية الخاصة بالآخر لم يظهر لها أى أثر .

وفى الساعة الثالثة أقبل جيم بارنيت من جديد ، والعلبة الفارغة في يده . وبعد أن ألقى بتحيته الساخرة مضى رأسا إلى الطابق الثالث .. كما لو انه يمضى الى عمل يشغل كل اهتمامه .

وبدأ درس العزف على الناى .. سلسلة من الأنغام ، وتمارين .. وعلامات موسيقية غير سليمة ، ثم صمت طويل لا معنى له الأمر الذى أثار حيرة بيشو الى اكبر حد ، وتساءل :

- ماذا يفعل بحق الشيطان ؟

وتصور أبحاثاً طويلة يقوم بها بارنيت سوف تنتهى إلى نتائج غريبة . وصعد الطوابق الثلاثة ، وأرهف سمعه .. لم يسمع أى صوت في مسكن مدرسة العزف على الناى ولكنه سمع صوت رجل ، عند جارتها ، الآنسة ليجوفيه ، الكاتبة على الالة الكاتبة وقال بيشو يحدث نفسه وقد استبد به الفضول :

- هذا صوته .

ولم يستطع أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك فطرق الباب .. وقال بارنيت من الداخل :

- ادخل .. الباب غير مغلق .

دخل بيشو .. كانت الآنسة ليجوفييه ، وهى سمراء جميلة ، جالسة أمام الآلة الكاتبة ، وتختزل على بعض الأوراق المتفرقة كلمات بارنيت .. وقال هذا الأخير :

- هل تأتى للتفتيش ؟ .. لا تزعج نفسك .. ليس لدى الآنسة ما تخفيه ، وانا كذلك .. اننى أملى عليها مذكراتى .. هل تسمح ؟

واستطرد يقول وبيشو ينظر تحت قطع الأثاث :

- وفى هذا اليوم وجدنى المفتش بيشو لدى الآنسة ليجوفييه الظريفة ، بعد أن أوصتها عازفة الناى بى .. وراح يبحث عن مستنداته الاثنى عشر التى لا تريد أن تظهر .. ووجد بعض الغبار تحت الأريكة ، وفردة حذاء تحت الدولاب .. والمفتش بيشو لا يهمل أية نقطة .. وانها لمهنة بغيضة .

نهض بيشو ولوح بقبضته نحو بارنيت وشتمه .. واستطرد هذا الأخير املاءه ولم يسع بيشو إلا أن ينصرف .

وبعد قليل ، هبط بارنيت ومعه علبة .. وكان بيشو يقوم بالحراسة فتردد ، ولكنه كان شديد القلق ففتح العلبة ، ولم يكن بها غير أوراق قديمة وبعض الخرق .

وأصبحت الحياة لا تطاق بالنسبة لبيشو المسكين .. فان وجود جيم بارنيت ، وسخريته ، ومداعباته كانت تجعله يغلى من الغضب ، فقد كان بارنيت يعود كل يوم ، وبعد درس الناى أو املاء مذكراته يخرج بعلبته فماذا يفعل ؟ لم يكن بيشو يجهل أن ذلك مقلب جديد وأن بارنيت يسخر منه . ولكن ماذا لو أنه فى تلك المرة يخرج بالمستندات ، ويهرب بسنداته الاثنى عشر .. ماذا لو ينتظر الفرصة لكى ينقل غنيمته .. وهكذا ، راح يفتش

ويفرغ ويدس يداً محمومة فى أشد الأشياء غرابة خرق ممزقة أو أسمال بالة ، أو مكانس مكسورة ، وقشور برتقال أو جزر .. وبارنيت يضحك ملء به فى كل مرة .

" السندات موجودة .. السندات غير موجودة .. هل سيجدها .. أم لا .. آه يالمسكين بيشو ! شد ما يضحكنى " .

واستمر هذا الحال اسبوعاً كاملاً .. وضاعت على بيشو أثناء ذلك النضال غير المتكافئ كل أجازته ، فضلاً عن أنه بدا مثيراً للضحك والسخرية فى الحى كله ، فلا هو ولا جاسير استطاعا منع السكان رغم تفتيشهم لهم من المضى الى أعمالهم ولا التهكم عليهم .. وكان لمغامرة جاسير المزعجة وقعها وتأثيرها ، فقد خاف عملاؤه وحاصروا مكتبه وطالبوه بأموالهم .. وكان النائب توفيمون والوزير السابق قد اعتاد الخروج من بيته والعودة إليه أربع مرات كل يوم .. وأزعجه هذا الغليان ، وطالب نيكولا جاسير بابلاغ البوليس ، فما كان لهذا الموقف أن يستمر اكثر من ذلك .

ولكن حادثاً مفاجئاً قلب الأوضاع ، ففى أصيل أحد الايام سمع بيشو وجاسير عراكاً عنيفاً فى الطابق الثالث .. صراخ وصياح نساء .. وكان الأمر يبدو خطيراً .. وصعدا الطوابق الثلاثة سريعاً .. كانت الآنسة مافيلان والآنسة ليجوفييه مشتبكتين وتتعاركان فى عنف دون أن يفلح بارنيت ، الذى كان يطربه الأمر رغم ذلك ، فى التغلب عليهما .. فقد تهدل شعر كل منهما وتمزق ثوباهما . وراحت الفاظ السباب والشتائم تتوالى .

فرق بيشو بينهما ، وأصيبت الضاربة على الآلة الكاتبة بأزمة عصبية ، واضطر بارنيت أن يحملها الى مسكنها بينما أعربت مدرسة الناى عن

غضبها قائلة وهى تكاد تصرخ :

– اننى فاجأتهما معا وهو يقبلها مع أنه بدأ يغازلنى انا .. ان بارنيت هذا رجل غريب الأطوار .. يجب أن تسأله يامسيو بيشو عما يدبره هنا منذ ثمانية أيام ، ولماذا يقضى وقته فى استجوابنا ، وفى التفتيش فى كل مكان واليك هذا .. أستطيع أن أقول لك أنه يعرف من الذى سرق .. انها البوابة ، نعم ، مدام الان .. لماذا منعنى من أن أقول لك ذلك .. ثم أنه يعرف الحقيقة بخصوص السندات ، والدليل على ذلك انه قال :

– انها فى البيت دون أن تكون فيه .. و " هى ليست فى البيت مع أنها فيه . " كن على حذر منه يامسيو بيشو .

وكان جيم بارنيت قد فرغ من الضاربة على الآلة الكاتبة ، فأمسك بالآنسة هافيلان ودفعها نحو غرفتها فى حزم قائلاً :

– هيا أيتها الاستاذة العزيزة .. كفى عن الاشاعات والثرثرة ، ولا تتحدثى عما لا يخصك فيما عدا الناى .

ولم ينتظر بيشو عودته ، فان كلمات الآنسة هافيلان عما يعتقده بارنيت جلت غموض القضية فى ذهنه .. نعم ، كانت مدام آلان البوابة هى المذنبة ، فكيف لم يخطر له ذلك من قبل ؟ وهبط السلم وقد أغضبه هذا الاعتقاد ، يتبعه نيكولا جاسير ، وأسرع الى غرفة البوابة :

– سنداتى .. أين هى .. انت التى سرقتها .

ووصل نيكولا جاسير بدوره ، وصاح :

– سنداتى .. ماذا فعلت بها أيتها السارقة .

وراح كل منهما يهز المرأة الضخمة ، وكل منهما يشدها من أحد

ذراعيها ويلاحقانها بالأسئلة والسباب .. ولكنها لم ترد فقد بدت مذهولة

وكانت ليلة فظيعة بالنسبة لمدام الان ، تبعها يومان لا يقلان عنها قسوة . لم يشعر بيشو لحظة واحدة ان جيم بارنيت أخطأ .. ثم ان الحقائق اتخذت معناها الحقيقى على ضوء ذلك الاتهام .. فان البوابة ، وهى تقوم بعملها لاريب قد لحظت وجود ربطة السندات فوق الطاولة بجوار الفراش ، وانها هى وحدها التى تملك مفتاح المسكن ، واستطاعت ، طبقا لمعرفتها عادات مسيو جاسير أن تأخذ الربطة وأن تسرع الى غرفتها ، حيث وجدها جاسير :

ولكن بيشو حبطت همته وراح يقول :

– نعم .. هى هذه المرأة اللئيمة التى سرقت السندات .. ولكن السر مازال غامضاً .. لا يهم أن تكون البوابة هى التى سرقت أو أى أحد غيرها طالما لم تعرف ماذا حدث لسنداتى الاثنى عشر .. اننى أسلم طبعاً أنها أخذتها الى غرفتها ، ولكن بأية معجزة خرجت السندات منها فيما بين الساعة التاسعة والساعة التى فتشنا فيها غرفتها .

ورفضت المرأة الافصاح عن ذلك السر رغم التهديدات ورغم الآلام المعنوية التى تعرضت لها .. انكرت كل شئ .. ولم تر شيئاً ، ولم تعرف شيئاً ، ورغم أنه لم يكن هناك أى شك فى اجرامها إلا انها بقيت صلبة عنيدة .

وقال جاسير ذات يوم لبيشو :

– يجب أن نفرغ من هذه المسألة .. انك رأيت ان النائب توفيمون أسقط الوزارة مساء أمس .. وسيأتى الصحفيون لمقابلته فهل تستطيع تفتيشهم ؟

اعترف بيشو بأن الأمر متعذر .. وقال فى توكيد :

– سأعرف كل شئ بعد ثلاث ساعات .

وبعد ظهر ذلك اليوم مضى وطرق باب مكتب بارنيت .

* * *

– كنت فى انتظارك يا بيشو ، فماذا تريد ؟

– مساعدتك .. فلم أعد أفهم شيئا .

كان الرد صريحاً . وأقر بيشو بفشله .

أسرع بارنيت إليه ، وأمسكه من كتفيه فى مودة ، وضغط على يده ، ووفر عليه فى رفق كبير مرارة الفشل .. ولم يكن الحديث حديث غالب ومغلوب ، وانما مصالحة بين زميلين .

– الحق يا عزيزى بيشو أن سوء التفاهم البسيط الذى وقع بيننا آلمنى كثيرا ، زميلان مثلنا يصبحان عدوين ! انه لأمر محزن وقد جافانى النوم .

قطب بيشو جبينه . فى ضميره البوليسى كان يلوم نفسه كل اللوم لعلاقاته الطيبة ببارنيت .. وأحنقه أن القدر جعل منه المساعد والمدين لهذا الرجل الذى يعتبره نشالاً ونصاباً . ولكن هناك للأسف ظروف يضعف فيها أشرف الرجال .. وخسارة الاثنى عشر سنداً من بين تلك الظروف .

وتمتم وهو يغالب وخز ضميره :

– هى البوابة حقا ، أليس كذلك ؟

– هى ، وذلك بسبب وجيه وهو انه ليس هناك من يمكن الاشتباه فيه غيرها .

– ولكن كيف يمكن لهذه المرأة المحترمة – حتى ذلك الوقت أن تقدم على ذلك العمل .

– لو اننى اتخذت الاحتياطات الأولية واستعلمت عنها لعرفت ان تلك المرأة المسكينة قد ابتليت بابن هو من أسوأ الأوغاد يبتز منها كل أموالها وقد استسلمت للاغراء ، من أجله .

اجفل بيشو وقال وهو يرتعش :

– وهل أفلحت فى تسليمه سنداتى ؟

– اوه ، إلا هذا .. ما كنت لأسمح بذلك . ان سنداتك الاثنى عشر مقدسة

– أين هى اذن ؟

– فى جيبك .

– لا تمزح .

– انا لا أمزح يا بيشو عندما يتعلق الأمر بمثل هذه الأمور الخطيرة . تحقق بنفسك .

دس بيشو يدا فى الجيب الذى أشار إليه بارنيت فى شئ من الحياء ، وجسه ، وأخرج منه مظروفا ضخما عليه هذه الكلمات "الى صديقى بيشو" وفض المظروف وامتقع وتخاذلت ساقاه ، واشتم زجاجة من الكولونيا ادناها بارنيت من أنفه وهو يقول :

– استنشق يا بيشو ولا تدع الاغماء يتغلب عليك .

لم يفقد بيشو رشده ، ولكنه جفف بضع عبرات سالت على خده ، وخنقت الازمة والانفعال حلقه .. لم يشك طبعاً فى أن بارنيت دس المظروف فى

جيبه بمجرد وصوله .. ولكن السندات الاثنى عشر كانت بين يديه المرتعشتين ، وبدا له أن بارنيت ليس نشالاً أبداً .

واسترد قواه فجأة ، وراح يقفز ويرقص رقصة اسبانية على ايقاعات وهمية .

- لقد استعدتها .. سنداتى الاثنى عشر .. آه يا بارنيت . انك لرجل عظيم لا يوجد فى العالم قرين لك .. لا يوجد إلا بارنيت ، منقذ بيشو .. ولكن كيف استطعت أن تفلح بحق الشيطان ؟ تكلم.

* * *

مرة أخرى ، أدهشت بيشو الطريقة التى أنهى بها بارنيت الأحداث وسأله يدفعه فضوله الجهنمى :

- واذن يا بارنيت ؟

- ماذا تعنى ؟

- آه .. كيف اكتشفت كل ذلك .. أين كانت الربطة .. هل تقول انها كانت فى البيت من غير أن تكون فيه ؟

- وخارج البيت مع أنها موجودة فيه .

وكانت لمداعبة بارنيت أثرها فقد توسل بيشو اليه قائلاً :

- تكلم .

- هل تقر بعجزك ؟

- بكل ما تشاء .

- وستتخلى عن استهجاناتك لى للتفاهات التى تصدر منى .. تلك

الاستهجانات التى تثير حزنى وتجعلنى أعتقد أننى أحيد فى بعض الأحيان عن الطريق القويم ؟

- تكلم يا بارنيت .

صاح هذا الأخير :

- آه .. انها لقصة ظريفة ، رغم اننى أحذرك يا عزيزى بيشو بأنك لن تشعر بأية خيبة أمل ، فاننى لم ألتق فى حياتى كلها بأجمل وأغرب وأمكر من هذه القصة ، وهى من البساطة بحيث أنك انت يا بيشو ، مع ما عرف عنك من ذكائك وموهبتك لم تفهم فيها شيئاً .

قال بيشو وقد تملكه الاستياء :

- ولكن تكلم .. كيف خرجت ربطة السندات من البيت ؟

- تحت بصرك يا عزيزى بيشو .. ولم تخرج من البيت فحسب وانما عادت إليه .. وقد راحت تخرج منه مرتين وتدخله ثانية مرتين كل يوم ، وتحت بصرك يا بيشو .. أمام عينيك الساذجتين ، وكيف تنحنى أمامها بكل احترام طوال عشرة أيام .. كانت تمر أمام عينيك بكل بساطة .

صاح بيشو :

- ما هذا الهذر ؟ .. هذه حماقة ، فقد كنا نفتش كل شئ .

- كنت تفتش كل شئ إلا هذا .. الطرود والعلب وحقائب اليد والجيوب والقبعات والمعلبات .. وفى المطارات يفتشون كل المسافرين ولكنهم لا يفتشون الحقائب الدبلوماسية .. وهكذا ، فتشت انت كل شئ إلا هذا .

صاح بيشو وقد عيل صبره :

- ماذا تعنى ؟

- أراهنك انك لن تخمن ذلك أبداً .

- تكلم بحق الشيطان :

- حافظة الوزير الأسبق :

وثب بيشو من مقعده وقال :

- ايه ؟ .. ماذا تقول يا بارنيت ؟ هل تتهم النائب توفيمون ؟

- هل جننت ؟ .. وهل أستطيع أن أسمح لنفسى وأتهم نائب ؟ أولاً لأن النائب والوزير الأسبق لا يمكن أن يكون عرضة للشبهة .. ومن بين جميع النائبين وكل الوزراء السابقين ، ويعلم الله أنهم كثيرون ، فاننى أعتبر توفيمون أبعدهم كلهم عن الشبهة .. ولكن هذا لم يمنع من أنه أخفى مسروقات مدام الان .

- شريك اذن ؟ .. أيكون النائب توفيمون شريكا ؟

- ولا حتى هذا .

- من تتهم اذن ؟

- من أتهم ؟

- نعم .

- حافظته .

وأردف يقول فى مرح وفى صوت هادئ :

- ان حافظة الوزير يا بيشو مهمة جداً ، فهناك فى العالم مسيو توفيمون وهناك حافظته ، ولا يفترق الواحد عن الآخر ، وكل منهما مرتبط بالآخر ، فلا يمكنك أن تتصور مسيو توفيمون من غير حافظته ، ولا حافظة مسيو

توفيمون من غيره هو .. ولكن يحدث أن يضع مسيو توفيمون حافظته بجواره أحياناً ، لكى يأكل مثلا ، أو لكى ينام ، أو لكى يقوم بحركة من حركات الحياة العادية .. وفى تلك اللحظات تتخذ حافظة مسيو توفيمون كينونة خاصة ، ويمكن أن تقع لأحداث لا يسأل عنها مسيو توفيمون أبداً .. وهذا ما حدث صباح يوم السرقة .

نظر بيشو الى بارنيت وهو يتساءل ماذا يعنى .. وعاد بارنيت يقول :

- هذا ماحدث صباح اليوم الذى اختفت فيه سنداتك الاثنا عشر ، فقد استولى الذعر على البوابة بسبب السرقة التى ارتكبتها، وأزعجها الخطر الذى يقترب ، ولم تدر كيف تتخلص من غنيمة ستتسبب فى هلاكها ، ورأت نجاة فرق .. فاتها حافظة مسيو توفيمون ، وكأن القدر قد أرسلها إليها .. كان مسيو توفيمون قد دخل غرفتها لكى يأخذ رسائله ، وألقى حافظته فوق المدفأة ، وراح يفض رسائله فى نفس الوقت الذى رحت فيه انت يا بيشو ، ومعك نيكولا جاسير تذكران له اختفاء السندات .. وعندئذ خطرت فكرة عظيمة لمدام الان ، فقد كانت ربطة السندات هى الأخرى فوق المدفأة ، بجوار الحافظة تخفيها بعض الجرائد ، ولم تكن الغرفة قد فتشت بعد ، ولكنها سوف تفتش وسوف يعثرون على السندات ، وفى الحال .. وفى بضع حركات أولئكم ظهرها وفتحت الحافظة وأفرغت إحدى خانتيها من أوراقها ودست فيها ربطة السندات . ولم ير أحد شيئا أو يشتبه فى أى شئ . وعندما انصرف مسيو توفيمون ، وحافظته تحت إبطه ، انصرفت سنداتك الاثنا عشر وكل سندات جاسير .

لم يبد بيشو أى احتجاج ، فان بارنيت عندما يؤكد فى اقناع تام ، لا يسعه إلا أن يعترف بالحقيقة ، ويصدق كل ما يقول .. وقال :

– الحق انني رأيت في ذلك اليوم حزمة من الاوراق والتقارير، ولم أعرها أي اهتمام .. ولكن لاريب أنها أعادت تلك الاوراق وتلك التقارير الى مسيو توفيمون بعد ذلك ؟

– لا أعتقد ذلك .. لاريب أنها أحرقتها حتى لا تلفت إليها الانظار .

– ولكن لاريب أنه طالبها بها .

– كلا .

– كيف ذلك ؟ .. ألم يكتشف اختفاء تلك الربطة من المستندات ؟

– كلا .. ولم يكتشف كذلك وجود ربطة السندات .

– ولكن عندما فتح الحافظة ؟

– انه لم يفتحها .. وهو لا يفتحها أبداً .. ان حافظة توفيمون كغيرها من حافظات الكثيرين من الرجال السياسيين ما هي إلا خدعة وهينة وتذكير بالنظام .. لو أنه فتحها لطالب بمستنداته ولأعاد السندات .. ولكنه لم يطالب بشئ ولم يرد أي شئ .

– ولكن عندما اشتغل مع ذلك ؟

– انه لا يشتغل وليس مضطراً للعمل لأن معه حافظة .. يكفي أن تكون معه حافظة وزير سابق لكيلا يعمل .. فان الحافظة بديل للعمل والسلطة والنفوذ والقدرة والمعرفة بكل شئ .. وعندما مضى مسيو توفيمون أمس الى مجلس النواب ، وقد حضرت انا نفس تلك الجلسة وأتكلم عن علم ، ألقى حافظته على المنصة ، وأحس الوزير بأنه هالك .. فان حافظة النائب المجتهد لابد أن تكون حافلة بمستندات دامغة وبأرقام واحصائيات .. وفتحها توفيمون ولكنه لم يخرج من خانتيها المنتفختين شيئاً .. وراح من

وقت لآخر ، وهو يتكلم يضرب بيده على الحافظة وكأنه يقول : كل شئ هنا ، ولكن لم يكن هناك أي شئ غير سندات بيشو الاثني عشر ، ومستندات جاسبير وأوراق قديمة .. لم يكن في الحافظة أي شئ آخر ومع ذلك فقد أسقطت الحكومة .

– ولكن كيف تعرف كل ذلك ؟

– لانه عند خروجه من مجلس النواب ، في الواحدة صباحاً ، وبينما كان عائداً الى بيته على قدميه أصطدم به رجل صدفة وأوقعه أرضاً .. وأسرع رجل آخر ، شريك للرجل الأول فالتقط الحافظة ، وأسعفه الوقت لكي يحشوها باوراق قديمة بدلا من السندات التي استولى عليها .. هل انا بحاجة الى أن أقول لك اسم ذلك الرجل الثاني ؟

* * *

ضحك بيشو من طرف خفي ، فقد راقت له القصة ، كما راقت له مغامرة توفيمون ، خاصة بعد أن أصبحت سنداته الاثنا عشر في جيبه .

ودار بارنيت حول نفسه في مرح وقال :

– هذا هو السر كله يا صديقي العزيز .. ولكي اكتشف تلك الحقائق الغريبة ، ولكي استنشق هواء البيت وأتزود بالمعلومات ، أمليت مذكراتي ، وأخذت دروساً في العزف على الناي ، وكان أسبوعاً ظريفاً .. غزل في الطابق الثالث ومرح ولهو في الطابق الأرضي .. جاسبير وبيشو وتوفيمون .. دمى صغيرة رحت أحرك خيوطها كما يحلو لي .. ولكن الأمر الذي ضايقني جداً هو الإقرار بأن توفيمون كان يجهل تحركات حافظته الاجرامية ، وأنه كان يتأبط دون أن يدري سنداتك الاثني عشر .. حيرتني هذه النقطة .. ثم

البوابة ! كان الأمر مفاجأة كبيرة لها ، ففى قرارة نفسها لابد أنها كانت تعتبر توفيمون كما لو كان آخر المختلسين ، ومازالت تعتقد انه استحوز على الاثنى عشر سندا والسندات الأخرى .. مسكين مسيو توفيمون !

سأله بيشو :

- هل يجب أن أخبره ؟

- وما الجدوى ؟ .. دعه يحمل معه تلك الجرائد القديمة وان يطمئن على حافظته .. ولا كلمة عن هذه القصة لأى أحد يا بيشو .

قال بيشو :

- فيما عدا السيد جاسير طبعاً ، إذ أننى يجب أن أطلعه على الحقيقة وانا أعيد له سنداته .

قال بارنيت :

- أية سندات ؟

- ولكن السندات التى تخصه والتى وجدتها انت فى حافظة توفيمون .

- آه .. هل جننت يا بيشو ؟ هل تتصور ان مسيو جاسير سيسترد سنداته ؟

- طبعاً .

هوى بارنيت بقبضته فوق المنضدة وقد تملكه الاستياء فجأة وقال :

- هل تعرف حقيقة صاحبك نيكولا جاسير هذا يا بيشو ؟ وغد ، كابن البوابة تماما .. نعم ، وغد .. كان يسرق عملاءه ، ويستحل أموالهم .. بل أسوأ من هذا ، كان يتأهب لسرقتهم .. وهذه هى تذكرته فى الدرجة الاولى

الى بروكسل بتاريخ نفس اليوم الذى سحب فيه السندات من خزانة الكريدى ليونيه ، ليس لكى يودعها أحد البنوك كما زعم وانما لكى يهرب بها .. ما رأيك الآن فى صديقك نيكولا جاسير ؟

لم ينطق بيشو بكلمة ، فمنذ سرقة الاثنى عشر سندا كانت ثقته بجاسير قد تزعزعت وانخفضت كثيراً .. ومع ذلك فقد قال :

- إن عملاءه كلهم من الناس الكرام ، فهل من العدل افلاسهم ؟

- ان ذلك لن يكون طبعاً ، وانا لا أقبل ابدا مثل هذا الظلم .

- حسنا ؟

- حسنا .. ان جاسير ثرى .

قال بيشو :

- انه لم يعد يملك شيئاً .

- هذا خطأ .. فطبقاً لمعلوماتى ، وهى معلومات أكيدة ، لديه مايتيح له السداد لعملائه ، ويتبقى له الكثير بعد ذلك .. وليكن معلوما لديك انه اذا كان لم يقدم شكوى منذ أول يوم فذلك حتى لا تتدخل العدالة فى أعماله . ولكن بتهديده بالسجن ، سوف ترى انه سيتدبر أمره .. لا يملك شيئاً ؟ .. ان صاحبك نيكولا جاسير مليونير ولابد أن يدفع بنفسه ما اقترفت يداه .

- معنى هذا ان فى نيتك الاحتفاظ بـ .

- الاحتفاظ بالسندات ؟ .. أبداً .. اننى بعتها .

- ولكنك تحتفظ بقيمتها ؟

ابدى بارنيت حركة استياء وقال :

- ولالحظة واحدة .. انني لاأحتفظ بشئ .

- وماذا تفعل بها اذن ؟

- انني أوزعها .

- على من ؟

- على أصدقاء يعانون من الحاجة ، وعلى جمعيات خيرية أقوم باعانتها أه .. لاتخف يابيشو .. ان نقود نيكولا جاسير ستستخدم استخداماً صالحاً .

لم يشك بيشو فى ذلك .. انتهت المغامرة هذه المرة أيضاً باستيلاء بارنيت على " الفلة " .. ان بارنيت يعاقب المجرمين وينقذ الأبرياء ، ولكنه لاينسى أن يكافئ نفسه ، فلابد للمحسن وفاعل الخير من أن يبدأ بنفسه .

اصطبغ وجه المفتش بيشو .. ان عدم احتجاجه معناه اشتراكه فى الجريمة ولكنه أحس من ناحية أخرى أن سنداته الاثنى عشر فى جيبه ، وأدرك انه لولا تدخل بارنيت لضاعت عليه .. ولهذا لم تكن اللحظة مناسبة لكى يغضب ويبدأ النزال .. وسأله بارنيت :

- ماذا بك ؟ ألست مسروراً ؟

قال بيشو المسكين فى توكيد :

- بلى .. بلى .. انني مسرور جداً .

- ابتسم اذن مادام كل شئ على مايرام .

وابتسم بيشو ، فصاح بارنيت :

- حسناً . يسرني انني أديت لك خدمة .. وأشكرك اذ زودتني بهذه

الفرصة .. لنفترق الآن ياصاحبى ، فلاريب أنك مشغول جداً ، وأنا انتظر زيارة سيدة .

قال بيشو وهو يمضى نحو الباب :

- الوداع .

ورد بارنيت عليه قائلاً :

- بل الى اللقاء .

خرج بيشو مسروراً كما قال ، ولكنه غير مستريح الضمير . واستقر منه العزم ألا يلتقى بذلك الرجل بعد ذلك أبداً .

وفى الخارج ، عند منعطف الشارع ، رأى ضاربة الآلة الكاتبة الجميلة مقبلة ، وأدرك انها السيدة التى ينتظرها بارنيت .

ولكنه رأى بارنيت بعد ذلك بيومين ، فى السينما وبرفقته الجميلة الآنسة فالين ، مدرسة الناى .

***

٦ تصاريف القدر

عهد الى المفتش بيشو حل قضية قصر فيودونجون ، فاستقل قطار المساء فى نفس اليوم ، وانطلق الى وسط فرنسا ، مزوداً بالمعلومات ، وهبط فى محطة جيريه ، حيث مضت به سيارة فى صباح اليوم التالى الى كفر مازوريك .. وبدأ بزيارة القصر ، وهو بيت فخم وعتيق قائم فوق رابية على ساحل نهر كروز ، ويقيم فيه جورج كازيفون ، وهو رجل قوى من رجال الصناعة ، ورئيس المجلس العام ، ويحظى بشهرة كبيرة ، وله علاقات سياسية ، فى نحو الاربعين من عمره ، يحمل مظهره الصارم على احترام الناس له .. ولما كان قصر فيودونجون فى دائرة أملاكه فقد أراد أن يمضى بيشو اليه .

وكان لابد فى البداية من اجتياز روضة كبيرة مزروعة باشجار الكستناء ، تنتهى الى برج مرتفع متهدم ، وهو الأثر الاقطاعى الوحيد الباقى فى كفر مازوريك والذى يرتفع فى السماء ، فى اخر المنعطف الذى تداعت عنده الصخور ، على شاطئ نهر كروز.

وعلى الشاطئ الآخر الذى تمتلكه أسرة دالسكار ، يقوم على مسافة تبعد بنحو اثنى عشر متراً يقوم سور من الحجارة الدبش يلمع بالرطوبة تقع بعده بنحو خمسة او ستة امتار شرفة محاطة بدرابزين وتظللها الأشجار ، تفضى

الى طرفة الحديقة .

كان المكان مهجوراً ، وهناك ، منذ عشرة أيام ، وفى الساعة السادسة صباحاً ، عثر فوق أكبر الصخور على جثة الكونت الشاب جان دالسكار . ولم تكن بالجثة اية آثار فيما عدا ذلك الأثر الذى تحدثه السقطة على رأس الرجل وكان هناك غصن يتدلى حتى الجذع بين غصون الأشجار فى الشرفة المقابلة .. ودل الأستنتاج على ان الكونت الشاب وقع من فوق الغصن فوق الصخور على الشاطئ ، وبهذا بدا ان الموت وقع قضاء وقدراً وقد سمح المسئولون بدفن الجثة .

يسأل بيشو :

- ولكن ماذا كان الكونت يفعل فوق تلك الشجرة بحق الشيطان

أجاب جورج كازيفون :

- كان يريد ان ينظر من أعلى ، وعن قرب الى هذا القصر ، فهو مهد الأسرة القديمة لآل دالسكار ..

وأردف يقول على الفور :

-لن أقول اكثر من ذلك ياسيدى المفتش .. ولاتنس ان ادارة الامن كلفتك بهذه المهمة تحت الحاحى الشديد ، فالواقع ان هناك إشاعة مغرضة تدور ، ووشايات لاأساس لها تصيبنى فى الصميم ، وأريد ان أضع لها حداً ، فقم بالتحقيق واستجوب ، وامض على الخصوص الى زيارة الآنسة دالسكار ، اخت الكونت الشاب ، والشخص الوحيد الباقى من الأسرة .. وفى يوم رحيلك تعال وودعنى .

لم يضع بيشو وقته ، ففحص اسفل البرج ، وقام بالتفتيش بين البقايا

المنكوبة في الداخل من الاحجار والاعشاب ، ثم عاد الى البرج ، واستجوب وزار قسيس الكفر والعمدة ، وتناول طعامه في الحانة . وفي الساعة الثانية دخل الحديقة الصغيرة التي تمتد حتى الشرفة ، والتي يشطرها الى قسمين بيت صغير متهدم يعرف باسم القصر ، وقال للمرأة العجوز التي خفت لاستقباله بأنه يريد أن يتحدث الى الآنسة دالسكار .. واستقبلته هذه الأخيرة على الفور الى غرفة منخفضة ، بسيطة المفروشات .. وكانت تتحدث مع رجل .. ونهض .. ونهض الرجل هو الآخر .. وعرف بيشو جيم بارنيت .

وهتف بارنيت في مرح وهو يبسط يده :

- آه .. ها انت أخيراً أيها الصديق العزيز! عندما رأيت صباح اليوم في الجرائد نبأ رحيلك لساحل الكروز ، انطلقت بسيارتي سريعاً لكي اكون في خدمتك ، وكنت في انتظارك .. أقدم اليك يا آنسة المفتش بيشو ، الرسول الخاص لادارة الأمن ، ويمكنك أن تطمئني إليه ، ولا شك أنه توصل الآن الى حل القضية ، فهو استاذ .. تكلم يا بيشو .

لم ينطق بيشو .. كان مذهولاً ، فقد كان بارنيت آخر شخص يتمنى أن يراه ، وأزعجه وجوده وأثار سخطه .. دائما بارنيت .. ألابد له من أن يلتقي به مرة أخرى ؟ وأن يخضع لمساعدته البغيضة .. أليس من المحقق أن بارنيت عندما يتدخل في أية قضية لا يكون له من هدف إلا الخداع والاحتيال .

ومهما يكن ، فقيم يتكلم وهو لايزال حتى الآن يتخبط في أشد الظلمات كثافة ، ولا يستطيع أن يفتخر بأقل اكتشاف .. ولزم الصمت في حين استأنف بارنيت حديثه فقال :

- إليك الأمر اذن يا آنسة .. ان بيشو اسعفه الوقت لكي يرسخ في ذهنه

أسسا هامة ويصر على أن تؤكدي له نتائج تحقيقه وحيث اننا لم نجد ، انا وانت ، الوقت لتبادل بضع كلمات ، فأرجو أن تتكرمي وتذكري لنا ماتعرفينه عن المأساة التي راح أخوك الكونت دالسكار ضحية لها .

كانت اليزابيث دالسكار فتاة طويلة القامة ، شاحبة اللون ، ترتدي السواد ، على جانب كبير من الجمال ، ولكنها ذات وجه صارم . كان يبدو أنه يرتجف أحيانا تحت الشهقات التي تحاول ان تتغلب عليها .. وقالت :

- كنت أود التزام الصمت ، ولكن مادامت تدعونني الى هذا الواجب الشاق فأنا على استعداد للاجابة على اسئلتك ياسيدي .

قال بارنيت :

- ان صديقي بيشو يريد أن يعرف متى رأيت أخاك لآخر مرة ؟

- في الساعة العاشرة مساء .. تناولنا العشاء ونحن نمرح ونلهو كالعادة كنت أحب جاك كثيراً . وكان يصغرني ببضعة أعوام ، وقد ربيته تقريباً ، وكنا سعيدين دائما معاً .

- هل خرج أثناء الليل ؟

- لم يخرج إلا قبيل الفجر بقليل ، في نحو الساعة الثالثة والنصف صباحاً .. وقد سمعته خادمتنا العجوز .

- هل كنت تعرفين أين يذهب ؟

- قال لي بالأمس انه يريد أن يصطاد بالسنارة من أعلى الشرفة ، وكانت تلك متعته الكبرى .

- اذن فأنت لا تستطيعين أن تقولي شيئاً عن المدة التي تبدأ من الساعة الثالثة والنصف حتى اللحظة التي اكتشفت فيها الجثة ؟

- بلى .. دوت طلقة رصاصة في الساعة السادسة والربع .

- الواقع أن بعض الأشخاص سمعوا هذه الطلقة .. وربما أطلقها صياد مخالف .

- وهذا ما قلته لنفسي .. ولكنني أحسست بالقلق مع ذلك ، فنهضت وارتديت ثيابي ، وعندما خرجت الى الشرفة كان الناس قد تجمعوا أمامها ، ونقلوا جثته الى حديقة القصر .. وكان المنحدر شديد الصعوبة من ناحيتنا .

- لا يمكن ان تكون لهذه الرصاصة أية علاقة بالحادث ، والا لكشف فحص الجثة عن الاصابة التي سببتها ، وهذا ما لم يحدث .

واذ بان عليها التردد أصر بارنيت قائلاً :

- أرجوك أن تردي على سؤالي .

قالت :

- مهما تكن الحقيقة فيجب أن أقول ان العلاقة في ذهني مؤكدة .

- لماذا ؟

- لأنه ليس هناك تفسير آخر ممكن في البداية .

- حادث ؟

- كلا .. كان جان دائما خفيف الحركة وشديد الحرص .. وما كان ليركن بحياته الى ذلك الغصن البالغ الرقة .

- والذي انكسر مع ذلك .

- لا شئ يثبت انه انكسر بسبب ثقله ، في تلك الليلة .

- اذن فرأيك الصريح والأكيد يا آنسة هو أن هناك جريمة ؟

- نعم .

- وعلى أية أدلة تستندين ؟ هذا ما يريد بيشو أن يعرفه منك .

فكرت اليزابيث بضع ثوان ، كان هناك إحساس بأنه يشق عليها ان تتذكر ذكريات بغيضة .. ومع ذلك فقد استقر منها العزم ، وقالت :

- سأتكلم اذن .. ومن أجل هذا يجب أن أتذكر حادثاً يرجع الى عشرين سنة في ذلك الوقت ، أفلس أبي بسبب موثق عقوده لم يكن أميناً معه واضطر ، لكي يسدد دائنيه ، أن يلجأ الى ثرى من رجال الصناعة بجيره وأقرضه هذا الأخير مائتي ألف فرنك واشترط عليه شرطاً واحداً وهو أن تؤول إليه ملكية القصر والأملاك وأراضي مازوريك اذا لم يسدد إليه الدين بعد خمس سنوات .

- ورجل الصناعة الذي تتحدثين عنه كان والد جورج كازيفون؟

- نعم .

- هل كان يريد هذا القصر ؟

- تماماً . أراد أن يشتريه اكثر من مرة .. ولهذا ، عندما مات أبي بعد أربع سنوات وأحد عشر شهراً أخطر عمي والوصي علينا بأن أمامنا مهلة شهر لتسديد الدين .. ولم يكن أبي قد ترك شيئاً فطردتني من القصر أنا وجان .. وآوانا عمي ، وكان يقيم في هذا القصر ، ولم يكن يملك هو نفسه غير إيراد بسيط . ومات بعد قليل ، كما مات مسيو كازيفون الأب .

أصغى بارنيت وبيشو في اهتمام .. وقال بارنيت :

- لا يرى صديقي المفتش أية رابطة بين ما تقولين وبين ما حدث اليوم .

نظرت الآنسة دالسكار الى المفتش بيشو فى دهشة يشوبها شئ من الازدراء .. واستطردت دون أن تردد :

– عشنا وحيدين اذن ، انا وجاك فى هذا القصر الصغير، أمام البرج والقصر اللذين كانا ملكا لاجدادنا طوال الوقت .. وكان ذلك بالنسبة لجان غماً وكرباً كانا يزدادان مع مر السنين مع نمو ذكائه وحساسيته كمراهق . كان يتألم حقا لأنه طرد مما يعتقد أنها منطقته .. وبين لهوه وعمله كان يقضى أياما طويلة لمراجعة سجلاتنا ، ومطالعة الكتب التى تتكلم عن أسرتنا .. وهكذا اكتشف ذات يوم ورقة كان أبى يسجل فيها حسابات سنواته الأخيرة ، ويدون المبالغ التى وضعها على حدة بفضل التوفير والمضاربات السعيدة .. كانت هناك إيصالات من أحد البنوك .. ومضيت الى ذلك البنك وعلمت ان أبى أقفل حسابه قبل موته باسبوع واحد بعد ان بلغت قيمة ايداعاته مبلغ مائتى الف فرنك وسحبها فى نفس الاسبوع .

– وهى نفس القيمة التى كان يجب أن يسددها بعد ذلك ببضعة أسابيع .

– لماذا أجل السداد اذن ؟

– لا أدرى .

– ولماذا لم يسدده بشيك ؟

– لا أعلم .. كان لأبى عاداته .

– اذن فمن رأيك أنه أودع ذلك المبلغ مكاناً ما ؟

– نعم .

– ولكن أين ذلك المكان ؟

ناولت اليزابيث بارنيت وبيشو نوته صغيرة من عشرين صفحة مغطاة

ببعض الأرقام وقالت وهى تشير الى الصفحة الأخيرة مرسوم فيها ثلاثة أرباع دائرة وعلى يمينها نصف دائرة أصغر من الأولى .

وكانت تقطع نصف الدائرة أربعة خطوط ، وبين خطين منها صليب صغير كل هذا مخطوط أولا بالقلم الرصاص ثم أعيد فوقه بالحبر .

وسألها بارنيت :

– ما معنى هذا ؟.. أجابت اليزابيث :

– لم نفهم إلا بعد وقت طويل .. حتى اليوم الذى خمن فيه جاك أن هذا الرسم يمثل الخريطة الحقيقية للبرج الكبير من الخارج .. نفس الأجزاء المتساوية للدائرتين المتحدتين ، والخطوط الأربعة تشير الى الشرفات الأربع .

قال بارنيت متمماً :

والصليب يبين المكان الذى أخفى فيه الكونت دالسكار المائتى الف فرنك فى انتظار استحقاق سدادها .

قالت الفتاة فى وضوح :

– نعم .

فكر بارنيت ، وفحص المستند ثم قال :

– الواقع ان هذا محتمل تماماً ، فان الكونت حرص على الاشارة الى المكان الذى اختاره ، ولم يترك له موته الفجائى الوقت لكى يطلعكما عليه لكن كان يكفيكما على ما أظن أن تبلغا مسيو كازيفون ، وأن تحصلا على الاذن .

– بأن نصعد الى البرج ؟ هذا ما فعلناه .. ولم نكن على علاقة ودية

بجورج كازيفون .. ومع ذلك فقد أحسن استقبالنا .. ولكن كيف نصعد الى البرج .. لقد انهار السلم منذ خمس عشرة سنة ، وانفصلت الأحجار وتفتت القمة ، ولا يمكن لأى سلم ولا لأية مجموعة من السلالم المربوطة بعضها ببعض بلوغ الشرفات التى تبعد عن الأرض بثلاثين متراً .. وكان من المستحيل التفكير فى التسلق .. ودارت بيننا مناقشات ومشروعات وخطط دامت شهوراً طويلة ، لم تفض الى .

قاطعها بارنيت قائلاً :

- لم تفض إلى أية نتيجة .

قالت وقد اصطبغ لونها :

- نعم .

- وأغرم بك جورج كازيفون ، وطلب يدك فرفضت .. ثم شراسة وعنف وقطيعة ، ولم يعد لجان دالسكار الحق فى دخول أملاك مازوريك .

أجابت الفتاة :

- هذا ما حدث .. ولكن أخى لم يستسلم ، فقد أراد هذه النقود .. أرادها لكى يشترى جزءا من أملاكنا . أو كما قال لكى تكون بوصلة تسمح لى بزيجة طيبة .. وأصبحت هذه فكرة ثابتة لديه ، وعاش أمام البرج ، وراح يتأمل قمته المتعذرة عليه طوال الوقت .

وابتكر ألف وسيلة لكى يبلغها .. وتدرب على اطلاق السهام، فما أن يبزغ الفجر كل يوم حتى يطلق سهامه المزودة بخيوط على أمل ان يقع السهم بحيث يمكن ربط حبل فى أحد تلك الخيوط ورفعه حتى القمة .. وأعد لذلك ستين مترا من الحبال وكانت كلها محاولات لا نتيجة لها ..وأحبطه فشلها

وقد قال لى فى اليوم السابق لموته " اذا كنت أصر هكذا فذلك لاننى واثق من النتيجة .. سيقع شئ فى صالحى .. ستقع معجزة . لدى استشعار بذلك ، فان الحق يتحقق دائما بقوة الأحداث أو بفضل من الله .

وعاد بارنيت يقول :

- انت تعتقدين اعتقاداً جازماً اذن بانه مات أثناء محاولة جديدة ؟

- نعم .

- ألم يكن الحبل فى نفس المكان الذى وضعه فيه ؟

- بلى .

- اذن ما الدليل ؟

- تلك الرصاصة التى أطلقت ، فان جورج كازيفون فاجأ أخى وأطلق الرصاص .

صاح بارنيت :

- اوه .. اوه .. هل تعتقدين أن جورج كازيفون جدير بمثل هذا التصرف ؟

- نعم . انه رجل عنيف تدفعه طبيعته الى أشد أعمال العنف .. حتى القتل .

- ولأى سبب يقتل ؟ ألكى يسلب أخاك ما حصل عليه من نقود ؟

أجابت الآنسة دالسكار :

- لا أدرى . ولا أدرى كذلك كيف ارتكبت الجريمة ، حيث أن جثة أخى السكين لا تحمل أى أثر لاصابة ومع ذلك فيقينى كامل وتام .

- لكن .. اعترفى أن هذا اليقين يقوم على الحدس والتخمين اكثر منه على الحقائق . ويجب أن أقول لك ان هذا لا يكفى فى مجال القضاء . ولا يستبعد أن يدفع الاستياء جورج كاريفون الى مقاضاتك بسبب التشهير ، اليس كذلك يا بيشو .

نهضت الآنسة دالسكار واقفة وقالت فى لهجة خطيرة :

- لست أحفل بذلك ياسيدى .. لم أتكلم لكى أنتقم لأخى المسكين فلن تعيده معاقبة الجانى الى الحياة ، ولكنى لكى أقول ما أعتقد أنه الحقيقة . اذا قاضانى جورج كاريفون فهذا من حقه ، ولكننى سأرد عندئذ أيضا بما يمليه ضميرى .

ولزمت الصمت لحظة ثم قالت :

- ولكنه سيلتزم الهدوء ، ولك أن تثق من ذلك أيها السيد .

وانتهت المقابلة ، ولم يصر جيم بارنيت ، فلم تكن الآنسة دالسكار امرأة يمكن تخويفها .. وقال :

- اننا نلتمس العذر يا آنسة لازعاجنا لك واقلاقك فى وحدتك .. ولكن كان لابد من ذلك ، بكل أسف ، لمعرفة الحقيقة .. ولك أن تتأكدى ان المفتش بيشو سيعرف كيف يستخلص من كلماتك المعلومات التى تتضمنها .

وحيا الفتاة ثم خرج ، وحذا بيشو حذوه هو الآخر .

وكان هذا الأخير لم ينطق بكلمة أثناء كل ذلك الحديث . وبعد ان خرجا لزم الصمت ، ربما احتجاجاً على مساعدة تثير حنقه اكثر من إخفاء الاضطراب الذى تسببه له هذه القضية الغامضة التى زاد بارنيت من غموضها بالأسئلة التى وجهها الى الفتاة .. وقال بارنيت :

- انت على حق يا بيشو ، واننى أعرف ما يدور فى خلدك .. ففى اعترافات تلك الفتاة ، هناك الممكن والمحال والحقيقى وغير الحقيقى وخطط الشاب دالسكار انما هى خطط صبيانية .. ولو أن ذلك الفتى المسكين استطاع بلوغ قمة البرج ، واننى أعتقد أنه بلغها ، على خلاف رأيك السرى ، فذلك بفضل تلك المعجزة الغريبة التى كان يتمناها من سويداء قلبه ، والتى لا نستطيع بعد أن نتصورها .. والمشكلة التى تتعرض لها الآن هى كيف أن ذلك الشاب استطاع فى مدى ساعتين ابتكار وسيلة التسلق واعدادها وتنفيذها ثم يهبط ، ويقع وهو فى الجو من تأثير طلقة بندقية .. لم تصبه .

وعاد جيم بارنيت يقول ، كما لو أنه يحلم :

- من تأثير طلقة بندقية لم تصبه .. نعم يا بيشو .. ان فى كل ذلك معجزة .

تواجد بارنيت وبيشو فى مساء اليوم نفسه فى حانة القرية .. وتناولا فيها العشاء ، كل من ناحيته .. ولم ير أحدهما الآخر فى اليومين التاليين إلا وقت العشاء .. أما بقية الوقت فقد تابع فيه بيشو تحقيقاته واستجواباته ، فى حين دار بارنيت بحديقة القصر ، وجلس على بعد قليل من الشرفة ، فوق ربوة مخضرة استطاع منها ان يرى البرج القديم ونهر كروز .. وراح يصطاد او يدخن سجائر وهو يفكر .. ولكى يكتشف معجزة ، فلابد على الاقل من ان يجد لها أثراً ، بدلاً من ان يخمن طبيعتها .. ماهى المعونة التى استطاع جان دالكسار أن يجدها والتى هدته إليها الظروف .

ولكنه مضى فى اليوم الثالث الى جبريه ، ومضى اليها كرجل يعرف مسبقاً ماسوف يفعل ، وأى باب سوف يطرق .

وأخيرا ، التقى بيشو فى اليوم الرابع ، وقال له هذا الأخير :

- اننى فرغت من تحقيقى

أجابه بارنيت :

- وأنا كذلك .

- وسأعود اذن الى باريس .

- وأنا ايضا يابيشو .. واستطيع ان اصطحبك فى سيارتى .

- حسناً .. اننى وعدت جورج كازيفون أن التقى به بعد ثلاثة ارباع ساعة .

قال بارنيت :

- ساجدك هناك ، فاننى سئمت الاقامة فى هذا القصر.

وسدد حساب الحانة ثم مضى نحو القصر ، وتفقد الحديقة وأرسل الى كازيفون بطاقته بعد أن كتب عليها مساعد المفتش بيشو .

استقبله جورج كازيفون فى بهو كبير يشغل جناحاً من القصر تزينه رءوس من الوعول ومجموعات من الأسلحة المختلفة ، وفترينات تحتوى على بنادق ودبلومات تشهد ببراعة كازيفون ومهاراته فى إصابة الأهداف .. وقال بارنيت :

- يجب أن يأتى صديقى ، المفتش بيشو لينضم الينا هنا .. اننا قمنا بالتحقيق معا ، وسنرحل معا .

سأله جورج كازيفون :

- ومارأى المفتش بيشو ؟

- انه رأى قاطع ياسيدى .. لاشئ .. لاشئ على الاطلاق يسمح بأن نرى هذه القضية على غير ماتبدو .. والمعلومات التى جمعناها لاتأثير لها أبداً .

- والآنسة دالسكار ؟

- ان الآنسة دالسكار ، طبقا لرأى المفتش بيشو ابتلاها الحزن ، وأقوالها لاتؤثر فى التحقيق .

- أهذا رأيك أنت ايضا يامستر بارنيت ؟

- أوه ماأنا إلا مساعد متواضع أيها السيد ، ورأيى مرتبط برأى بيشو

وراح يمشى فى البهو ، وينظر الى الفترينات وقد بدا عليه الاهتمام بمجموعة الأسلحة .. وقال جورج كازيفون :

- انها بنادق جميلة ، أليس كذلك ؟

- بل رائعة .

- هل أنت من الهواة .

- اننى من المعجبين بالبراعة على الخصوص ، وبكل دبلوماتك وشهاداتك ، وهى من مؤسسات معروفة ومشهورة تثبت كلها أنك أستاذ . وهذا ماقيل لى أمس فى جيريه .

- هل يتكلمون عن هذه القضية كثيراً فى جيريه ؟

- اذا أردت الحقيقة فكلا .. ولكن براعتك فى إصابة الهدف مشهود بها .

وأخذ بندقية وراح يعالجها بين يديه ، ويزنها فقال جورج كازيفون :

- توخ الحذر .. انها بندقية حرب محشوة .

- استخدمها ضد الأشقياء .

- بل ضد لصوص الصيد .

- حقا ياسيدى ؟ .. أتكون من الشجاعة بحيث تردى واحداً منهم ؟

- يكفينى أن أحطم إحدى ساقيه .

- ومن هنا ، من هذه النافذة تطلق النار ؟

- أوه ، ان لصوص الصيد لا يقتربون من هذه الناحية .

- ومع ذلك فانه ليكون أمرا داعياً الى الطرب .

وفتح نافذة صغيرة جداً ، فى ركن من البهو وقال :

- آه .. عجبا .. أننا نرى من هنا ، من بين الأشجار جزءا قليلاً من البرج القديم ، على بعد نحو مائتين وخمسين متراً تقريبا .. لابد ان ذلك الجزء هو الذى يطل على النهر ، أليس كذلك ؟

- تقريباً .

- بل يطل عليه مباشرة .. انظر .. اننى أعرف باقة من الأشجار بين صخرتين .. هل ترى هذه الزهرة الصفراء هناك .

وأسند البندقية الى كتفه وأطلق فى خفة ، ووقعت الزهرة .

بدا شئ من المرح على جورج كازيفون .. ماذا يبغى ذلك المساعد المتواضع ذو المهارة العجيبة ، وبأى حق أصدر هذه الضجة .. وقال بارنيت :

- إن خدمك يقطنون فى الناحية الأخرى من القصر ، أليس كذلك .. لا يمكن ان يسمعوا مايدور هنا .. ولكن يؤسفنى جدا الذكرى الأليمة التى سببتها الآن للآنسة دالسكار .

ابتسم جورج كازيفون وقال :

أظن ان الآنسة دالسكار تصر على وجود علاقة بين رصاصة ذلك الصباح والحادث الذى وقع لأخيها؟

- نعم .

- ولكن كيف تثبت وجود هذه العلاقة ؟

- كما أثبتها انا نفسى الآن .. من ناحية ، وقف بعضهم أمام هذه النافذة ، ومن ناحية أخرى أخوها المعلق بالبرج .

- ولكن مادام أخوها قد مات بسبب وقوعه .

- وقوع سببه تحطيم صخرة معينة وبروز معين كان يتشبث بهما بيديه .

تجهم وجه جورج كازيفون وقال :

- لم أكن أعلم أن اعترافات الآنسة دالسكار بهذه السمة المحددة ، واننا أمام اتهام صريح .

كرر بارنيت عبارته الأخيرة قائلا :

- اتهام صريح .

نظر اليه الآخر .. أدهشه اكثر فاكثر جرأة المساعد المتواضع ولهجته وهيئته الدقيقة ، وراح يتساءل ان لم يكن الرجل قد جاء بنوايا عدوانية .. لأن الحديث الذى بدأ بطريقة شاردة اتخذ وضعاً هجومياً كان لابد له من مواجهته ، فجلس فجأة وقال :

- وما الهدف من ذلك التسلق فى رأيك ؟

- استرداد المائتى الف فرنك التى خبأها أبوه فى مكان أشار إليه

الصليب فى الرسم الذى عرضه عليك .

احتج جورج كازيفون قائلاً :

- هذا تفسير لم أقبله أبداً ، فلو أن أباه جمع هذا المبلغ فلماذا أخفاه بدلا من أن يسدده لأبى على الفور .

اعترض بارنيت وقال :

- الاعتراض له قيمته ، ما لم يكن قد أخفى شيئا آخر غير المبلغ .

- وماذا اذن ؟

- لا ادرى .. يجب أن نواجه نظرية .

- ثق إن اليزابيث وأخاها جان دالسكار قد استعرضا كل النظريات .

- وما أدرانا ؟ انهما ليسا من المحترفين مثلى .

- مهما يكن من أمر المحترف فهو لا يمكنه أن يبتكر شيئاً من لا شئ .

- بل يمكنه هذا أحيانا .. هل تعرف السيد جريوم الذى يشرف على أرشيف جرائد جيريه ، والذى كان يعمل محاسباً فى شركاتك سابقاً .

- نعم ، وهو رجل قدير حقاً .

- انه يزعم أن أبا الكونت جان قد زار أباك فى صباح اليوم التالى لليوم الذى سحب فيه المائتى الف فرنك من البنك .

- واذن ؟

- الا يمكن ان نفترض أنه رد لأبيك المائتى ألف فرنك اثناء تلك الزيارة ، وان الايصال هو الذى أخفاه فوق قمة البرج ؟

أجفل جورج كازيفون وقال :

- ولكن هل تدرك أيها السيد ما فى نظريتك هذه من إهانة لذكرى أبى ؟

سأله بارنيت فى سذاجة :

- وكيف هذا .

- لو أن أبى قبض ذلك المبلغ لأعلن ذلك بكل صراحة .

- ولماذا ؟ .. لم يكن مجبراً على الكشف عن سداد قرض قدمه بصفة شخصية .

هوى جورج كازيفون بقبضته على مكتبه وقال :

- ولكنه ، ما كان ، بعد أسبوعين ، أى بعد موت مدينه ، ليطالب بحقوقه فى أملاك مازوريك .

- ومع ذلك فهذا ما فعله .

- ولكن .. ولكن .. ان ما تقول جنون .. يجب أن تكون منطقيا أيها السيد حين تتحقق بمثل هذه التأكيدات .. وعلى فرض أن أبى كان جديراً بأن يطالب بمبلغ سبق أن تسلمه فانه ما كان إلا ليجازف بأن يقدموا اليه الايصال .

قال بارنيت فى شئ من الاهمال وهو يشدد الضغط على كل كلمة من كلماته :

- لعله عرف أن أحداً لا يعلم بذلك ، وأن الورثة يجهلون أمر السداد . ولما كان متمسكا بهذه الأملاك كما قيل لى ، ولما كان قد أقسم بأنه سوف يحصل عليها بأية طريقة فقد استسلم للاغراء .

وهكذا . شيئا فشيئا ، وبالايعازات الساخرة والعنيدة قلب جيم بارنيت وجه القضية واتهم كازيفون الأب بالغدر والاحتيال . وانتفض جورج كازيفون من فرط الغضب ، وشدد الضغط على قبضتيه ، وراح يراقب في ذهول ذلك المساعد المتواضع الذى جرؤ فى برود وهدوء بأن يذكر تلك الحقائق البغيضة . وصاح :

- انني أمنعك أن تتكلم هكذا .. انك تقول أشياء كيفما اتفق .

- كيفما اتفق ؟ .. كلا .. وأؤكد لك ذلك .. ان كل ما اذكره تؤيده الحقائق تماماً .

صاح جورج كازيفون محطما حلقة الافتراضات والنظريات التى أحاطه بها هذا العدو غير المتوقع :

- كذب .. ليس لديك أى دليل .. لكى يكون لديك الدليل على العمل الشائن الذى ارتكبه أبى فلابد لك من أن تمضى وتبحث عنه فى قمة البرج القديم .

- هذا ما فعله جان دالسكار .

- هذا غير صحيح .. فما كان فى مقدوره أن يتسلق برجاً ارتفاعه ثلاثين متراً ، فان هذا فوق قوة البشر ، ولا يمكن انجازه فى ساعتين .

عاد بارنيت يقول فى إصرار :

- لقد فعل جان دالسكار ذلك .

قال جورج كازيفون :

- ولكن بأية وسيلة ؟ .. وبأى سحر ؟

نطق بارنيت بالعبارة التالية :

- بواسطة حبل .

انفجر كازيفون ضاحكاً وقال :

- بواسطة حبل ؟ ولكن هذا جنون ! نعم . والواقع انني فاجأته مائة مرة وهو يطلق سهاما على أمل أحمق بأن يتعلق الحبل الذى أعده .. يا للفتى المسكين .. أعود فأقول فى ساعتين ثم .. ثم لو ان هذا حدث لوجدوا ذلك الحبل فوق البرج بعد الحادث أو فوق الصخور ، على ساحل النهر .. ولما وجدوه فى القصر كما لابد أنه لايزال هناك حتى الآن .

أجابه جيم بارنيت وهو فى اتم الهدوء :

- انه لم يستخدم ذلك الحبل .

صاح جورج كازيفون وهو يضحك فى عصبية :

- أى حبل استخدم اذن ، لأن هذه القصة تتخذ أخيرا وجهاً جدياً .. ان الكونت جان دالسكار هبط فى الفجر على شرفة قصره مزوداً بحبله السحرى ، ونطق بالكلمات السحرية ، وارتفع الحبل وحده حتى قمة البرج لكى يتمكن الساحر من تسلقه .. معجزة الدراويش الهنود .. ماذا أقول ؟ ..

قال بارنيت :

- انت أيضاً ايها السيد يجب أن تتكلم عن معجزة ، تماماً كتلك المعجزات التى كانت الأمل الأخير لجان دالسكار والتى بنيت انا عليها اعتقادى بخصوص هذه الفكرة .. ولكنها معجزة حدثت بطريقة مخالفة لما تصوره انت ، لأنها لم تقع من أسفل الى فوق كما هى العادة ، وكما هو المعقول وانما حدثت من فوق الى تحت .

قال كازيفون مازحاً :

- العناية الالهية اذن ! .. العناية التى قامت بمعجزة لأحد مختاريها .

قال بارنيت :

– ليس للعناية الالهية دخل فى ذلك .. انما المعجزة التى اتكلم عنها هى من تلك المعجزات التى يمكن لمجرد الصدفة أن تحققها فى أيامنا هذه .

– الصدفة ؟

– لاشئ محال فى هذا المجال .. فان الصدفة أقوى الأشياء وأكثرها إثارة وبراعة ، واكثرها بعداً عن الواقع وغرابة أيضاً .. فهى تقرب وتجمع وتضاعف اكثر التدبيرات المخالفة للمألوف ، وتخلق باكثر العناصر تبايناً واقع كل يوم .. وليس هناك ما يخلق المعجزات غير الصدفة ، والمعجزة التى أتصورها غريبة جداً فى عصرنا هذا ، حيث يقع من السماء أشياء أخرى غير النيازك وغبار الكون .

قال كازيفون ساخراً :

– حبال ؟

– حبال .. وأى شئ .. ان قاع البحر حافل بالأشياء التى تقع من السفن الذى تمخره

– ولكن ليس هناك سفن فى السماء .

– بل هناك ، ولها اسماء أخرى .. ومنها البالونات والطائرات والمناطيد . وهى تنطلق فى كل الأجواء ، كما تمخر السفن البحار ويمكن أن يقع منها أو أن يلقى منها آلاف الأشياء المختلفة .. وقد تكون من بين هذه الأشياء ربطة من الحبال تتعلق بشرفات البرج .. وهكذا تجد تفسيرا لكل شئ .

– وهو تفسير سهل .

– بل تفسير يستند على أساس .. اقرأ جرائد البلد التى ظهرت منذ

الاسبوع الماضى ، كما قرأتها انا أمس ، وسوف تعرف أن بالونا حلق فى الجو فى الليلة التى سبقت موت الكونت جان .. وقد انطلق نحو الجنوب وألقى بضعة اكياس من الرمل ، على بعد خمسة عشر كيلو مترا شمال جيريه .. فكيف لانستنتج أنه ألقى ربطة من الحبال وأن أحد طرفى الحبل تعلق بشجرة من أشجار الشرفة وأن الكونت جان اضطر الى كسر غصن لكى يحرره .. وأنه هبط الى الشرفة وأمسك بطرفى الحبل وجمعهما معا وتسلق ، وهو عمل شاق ، ولكن يمكن أن يقوم به فتى فى مثل سنه .

تمتم كازيفون وقد توترت ملامحه :

– ثم ؟

اختتم بارنيت حديثه قائلاً :

– ثم رأى شخص بارع فى الرماية ، موجود هنا ، بجوار النافذة ، ذلك الرجل معلقاً فى الفضاء ، فأطلق رصاصة على الحبل وقطعه .

قال كازيفون فى صوت أصم :

– آه .. أهكذا تفسر انت الحادث .

استطرد بارنيت :

– ثم جرى ذلك الشخص حتى النهر ، وفتش الجثة لكى يأخذ منها الايصال ، ثم أمسك بطرف الحبل المتدلى وجذبه اليه بقوة ومضى وألقى به فى أحد الآبار ، حيث لن يلبث رجال البوليس أن يعثروا عليه .

انتقل الاتهام الآن ، وأصبح الابن ، بعد الأب ، هو المتهم ، وفى علاقة منطقية أكيدة ، لاتقبل النقض ، وتجمع الماضى بالحاضر .

حاول كازيفون أن يتملص ، وتملكه الحنق ضد الرجل نفسه اكثر من

بكلمات وصاح :

- يكفيني ما سمعته من تفسير مشوش ونظريات سخيفة .. والآن ، أغرب عن وجهي .. سأقول للمفتش بيشو أنني طردتك من بيتي لأنك تحاول ابتزازي .

قال بارنيت ضاحكاً :

- لو أنني أردت ابتزازك لبدأت بتقديم أدلتي .

قال كازيفون وقد خرج عن طوره :

- أدلتك ؟ .. وهل لديك أدلة .. ان هي إلا كلمات وتفاهات ولكن ليس لديك دليل ، ولا دليل واحد يمكن أن تؤكد به أقوالك إليك عني .. أدلة ؟ .. ليس هناك غير دليل واحد قد يكون مقبولاً ، ليس هناك غير دليل واحد قد يربكنا انا وأبي .. فكل حججك الواهية تنهار اذا لم يكن لديك هذا الدليل ، وما أنت إلا مازح بغيض .

- وما هو ؟

- الايصال بالطبع .. الإيصال الممهور بتوقيع أبي .

قال بارنيت وهو يبسط ورقة مدموغة اصفرت أطرافها بفعل الزمن :

- ها هو .. هذا خط أبيك ، أليس كذلك ؟ والنص اكيد .

" انا الموقع أدناه ، اوجست كازيفون ، أقر واعترف بأنني تسلمت من الكونت دالسكار مبلغ المائتي ألف فرنك التي سبق أن اقرضته اياه .. وهذا الايصال يحرره دون أي اعتراض ممكن من رهن قصره وأملاكه لي " .

والتاريخ مطابق لليوم الذى أشار اليه السيد جريبم .. والتوقيع صحيح ،

وعلى ذلك فالايصال لا يقبل أى جدل ويجب أن تقبله يا سيدى سواء بمستندات سرية تركها لك أبوك أو باقراره واعترافه التى يتضمنه هذا الايصال .. واكتشاف هذا الايصال معناه إدانة أبيك ، وإدانتك انت الآخر ، وطردك من القصر والأملاك التى تتمسك بها كما تمسك بها أبوك وانت قتلته لهذا السبب .

تمتم كازيفون :

- لو انني قتلته لاستوليت على هذا الايصال .

- انك بحثت عنه في جثة ضحيتك ولم تجده ، فقد دفع الحرص الكونت جان دالسكار الى أن يربطه بحجر وأن يلقيه من فوق قمة البرج لكي يلتقطه فيما بعد .. وأنا الذى وجدته على مقربة من الشاطئ ، على بعد عشرين متراً .

واستطاع بارنيت أن يجد الوقت الكافي لكي يتراجع الى الخلف فان جورج كازيفون حاول أن ينتزع الايصال منه .

ومرت لحظة تبادل فيها الرجلان النظر ، ثم قال بارنيت :

- ان مجرد حركتك هذه تعتبر اعترافاً .. ثم ان الذعر مرتسم فى عينيك وانت فى مثل هذه اللحظة جدير بكل شئ كما قالت لى الانسة دالسكار . وهذا ما حدث فى ذلك اليوم عندما رفعت بندقيتك على غير وعى منك تقريباً ولكن تمالك نفسك .. ان جرس الباب يدق .. انه المفتش بيشو ، وقد يكون من مصلحتك ألا يعرف شيئاً .

ومرت لحظة .. وأخيرا تمتم كازيفون والذعر لا يزال مرتسما فى عينيه :

- كم ؟ .. كم تريد ثمنا لهذا الايصال ؟

- انه ليس للبيع .

- هل تحتفظ به ؟

- سيعاد اليك ، ببعض الشروط .

- وما هى ؟

- سأذكرها لك أمام المفتش بيشو .

- واذا رفضت .

- سأبلغ عنك عندئذ .

- ان ادعاءاتك لا تستند الى أساس .

- حاول .

ولاريب ان جورج كازيفون أحس بقوة وصلابة إرادة غريمه لأنه أطرق ، وفى نفس اللحظة أدخل أحد الخدم بيشو .

ولم يكن المفتش يتوقع رؤية بارنيت فى القصر ، فعبس .. فيم كان هذان الرجلان يتحدثان بحق الشيطان ؟ هل جرؤ هذا البغيض بارنيت على أن يناقض اثباتاته هو مسبقاً .

جعله هذا القلق اكثر تأكيدا فى شهادته ، فقد شد على يد جورج كازيفون فى مودة كبيرة وقال :

- اننى وعدتك يا سيدى أن أقدم اليك ، قبل رحيلى ، نتيجة أبحاثى ، وصورة التقرير الذى سأقدمه ، وهى أبحاث مطابقة تماماً للطريقة التى فسرت بها القضية هنا .

وأردف يقول ، مستخدماً تقريباً ، نفس العبارة التى سبق ان نطق بارنيت

بها :

- ان الشائعات لتى تطلقها الآنسة دالسكار عنك لا تستحق أى اهتمام .

وأسرع بارنيت يقول موافقا :

- حسن جدا .. وهذا نفس ما ذكرته انا للسيد كازيفون .. مرة أخرى ، يقدم استاذى وصديقى بيشو الدليل على ذكائه العادى .. ويجب أن أقول ، من ناحية أخرى ، ان السيد كازيفون كان من سعة الأفق بحيث يرد على الاتهامات التى تعرض لها بكل كرم وسخاء ، فهو يرد الى الآنسة دالسكار أملاك أجدادها .

بدا كأن بيشو تلقى ضربة مطرقة على أم رأسه وقال :

- إيه .. هل هذا ممكن ؟

أجاب بارنيت فى توكيد :

- ممكن تماماً .. لقد تسببت هذه المغامرة فى استياء السيد كازيفون من هذا القصر ، وهو يفكر فى الانتقال الى قصر قريب .. من مصانعه فى جيريه .. بل انه كان ، عند التوصى ، على وشك أن يحرر صيغة هبة ، وأبدى رغبته فى أن يضيف شيكا بمائة ألف فرنك لحامله ، يكون بصفة تعويض للآنسة دالسكار .. اننا مازلنا متفقين على ذلك يا مسيو كازيفون أليس كذلك ؟

لم يتردد هذا الأخير دقيقة واحدة ، فامتثل لأوامر بارنيت بسرعة ، كما لو أنه هو الذى قدم هذا العرض ، وجلس أمام مكتبه ، وحرر المستند ، ووقع على الشيك ، وقال :

- ها هى أيها السيد .. سأصدر تعليماتى لموثق عقودى .

ألا يبدو هذا جميلاً ؟

رماه بيشو بنظرة تقطر حقداً .. لم يشعر أبداً بمثل هذه الكراهية نحو أى رجل .

ونهض ، وألقى ورقة مالية فوق المائدة لكى يدفع الحساب ، ثم تمتم وهو ينصرف :

- هناك لحظات أتساءل فيها ان لم يكن هذا الرجل هو الشيطان بعينه .

وقال بانيت وهو يضحك :

- واننى ألقى على نفسى هذا السؤال أحيانا .

***

(تمـــت)